الوصية الصديقية

للامام القطب الاكبر ابى عبد الله محمد بن الصديق

الغمارى الحسنى قدس الله سره

وشرحها

الانوار القدسية فى شرح الوصية الصديقية

للعارف بالله جمال الدين الصوفى ابى اليسر عبد العزيز

بن الصديق الغمارى قدس الله سره



الوصية الصديقية

للإمام القطب الأكبر أبو عبد الله بن الصديق الغماري الحسني قدس الله سره

وشرحها

الأنوار القدسية في شرح الوصية الصديقية

للعارف بالله جمال الدين الصوفي أبواليسر عبد العزيز بن الصديق الغماري

الحسني قدس الله سره

الطبع والنشر

دار الروضة الإسلامية

جاكرتا إندونيسيا

الكتاب : الوصية الصديقية وشرحها

التصنيف : التصوف

المؤلف : عبد العزيز بن محمد بن الصديق الغماري

الناشر : دار الروضة الاسلامية - جاكرتا اندونسيا

سنة الطباعة :١٤٣٧ه /ابريل 2017





Daar Arraudhah Al-Islamiyah
Tebet Barat VII No. 50,
Jakarta Selatan - DKI Jakarta - Indonesia
Telp. +62 21 8379 4508

Zawiyah Arraudhah Ihsan Foundation

Zawiyah Arraudhah Ihsan Foundation

zawiyah.arraudhah

@zawiyaharraudhah

www.zawiyah-arraudhah.com

الوصية الصديقية

للإمام القطب الأكبر أبو عبد الله بن الصديق الغماري الحسني قدس الله سره

وشرحها

الأنوار القدسية في شرح الوصية الصديقية

للعارف بالله جمال الدين الصوفي أبواليسر عبد العزيز بن الصديق الغماري الحسني قدس الله سره

الطبع والنشر

دار الروضة الإسلامية

جاكرتا إندونيسيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ على ما ألهَمَ وأنعَمَ وعلَّم. وصلَّى الله على سيدنا ومولانا محمدٍ وآلِه وصحبِه وسلَّم.

وبعد: فهذا شرحٌ مختصَرٌ لِوصيَّةِ القُطبِ الأكبر والعارفِ الأشهَرِ، الحائزِ لِلْعِلْمين، والجامِعِ بين الشَّرَفَيْنِ، الإمام أبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ الصِّدِّيقِ الحَسَني رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به. كتَبَها لِبعضِ الإخوان الآخذين عنه والمنتسبين إليه. وقد كَتَب رضي الله تعالى عنه الكثيرَ من الوصايا والرسائل إلى سائر إخوانه الآخِذين عنه في سائرِ مُدنِ المغْرب وقُراه، وكلُّها مملوءةٌ علماً وفائدةً، وإرشاداً، ونوراً وهُدى.

ذَكَر فيها مِنَ الآداب التي يَجِبُ على الصوفيِّ التخلُّقُ بها والتمسك بأهدابِها، ما لا يَجِدُه الإنسانُ في غيرِها مِنَ المطَوَّلات، مع سلاسَةِ اللفظِ وسهولَةِ التركيبِ.

وهذه الرسالة التي سنتناول شرْحَها في هذه الأوراق هي أصغرُ ما وقَفنا عليه من رسائله ووصاياه، رضي الله تعالى عنه. ومع إختصارها فقد ذكر فيها ما يحتاج إليه سالِكُ الطريق، ولا يستغني عنه طالِبُ الآخرةِ السالِكُ على منهاجِ أهل السنَّة.

وهذا الشرحُ هو الشرحُ الثالثُ الذي وضعتُه على هذه الوصيةِ المفيدةِ الجامعةِ لِمَا يَحتاجُ إليه المؤمنُ في معاملتِه مَعَ رَبِّه تعالى.

وسمَّيتُه: ''الأنوار القُدسِيَّة في شَرْحِ الوصيَّةِ الصِّدِّيقِيَّة''، واللهَ تعالى أَسألُ أن ينفعَ به، ويتقبَّله، ويُثِيب عليه، إنه سميعٌ مجيبٌ، وبالإجابة جَديرٌ.

قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفَعَنا بِه: (**الحمدُ لله**). قُلتُ: اِبْتَدأَ بِالحمدِ لأنَّ كلَّ أمرٍ ذِي بالٍ ينبغي أنْ يُستَفْتَحَ بالحمد، اِقتداءً بكتاب الله العزيز. فإنَّ أَولَ سُوَرِهِ: ﴿ **الحمدُ**

لله ربِّ العالَمِين ﴾، وامتِثالاً لِقَوْلِه صلى الله عليه وآله وسلم: « **كُلُّ أمْرٍ ذِي بَالٍ لا يُبْدأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ للهِ أقْطَع** »، رواه اِبنُ ماجه في ''سننِه''، وأبو عَوانة في ''صحيحه''، مِنْ حديث أبي هريرة وله طرقٌ كثيرةٌ. وهذا هو اللفظ الواردُ، أمَّا لفْظ: « لا يُبْدأ فِيه بِبِسمِ الله الرحمن الرحيم » فَلا يَثْبُت. وقد أَكْثَرَ ذِكْرَهُ العلماءُ في كُتبِهِم، وذلك سهوٌ منهم وغفلةٌ. وأتَى الشيخُ رضي الله تعالى عنه بأكْمَلِ صِيَغِ الحمدِ، وهي: الحمدُ لله. وقد اِختلف العلماءُ في ذلك فقال بعضُهم: أَكْمَلُها وأفْضَلُها الجملةُ الفِعليةُ، لأنَّها تُشْعِرُ بِمَنْ صَدَرَ مِنه الحمدُ، وهو أَدَلُّ علَى العبودِيةِ.

وقال آخَرون: أَكْملُها وأفضلُها الجُملةُ الاسْمِيَّةُ، لأنها تدلُّ على دوام مضمونِها لِعدَمِ اِقْتِرانِها بالزَّمانِ بِخِلافِ الفِعليَّةِ.

(**قُلتُ**): الصوابُ أنَّ أكْمَلَ الصِّيَغِ وأَفْضلَها الجملةُ الِاسمِيَّةُ، لِقولِه تعالى في فاتحة كتابه العظيم: ﴿ **الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين** ﴾، وكذلك ورَدَ في الحديث: « **كُلُّ أَمْرٍ ذِي بالٍ لا يُبْدَأُ فِيهِ بالحمد لله**.. ». ولَم يَرِدْ عن النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم في خُطبِه كلِّها، ولا في أذكاره، صِيغةٌ لِلحمدِ غيرَ: الحمدُ لله. فدلَّ كلُّ هذا علَى أنَّها أفضلُ وأكملُ وأبلَغُ صيَغِ الحمدِ.

وقال الحافظ السيوطي في ''الإِكْليل في اِستنباط التنزيل'' في قوله تعالى: ﴿ **الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمين** ﴾: '' واستدلَّ بالافتتاح بها مَنْ قال إنَّها أبلَغُ صيَغِ الحمد، خِلافاً لِمَنْ اِدَّعَى أنَّ الجملةَ الفِعليةَ أبلَغُ. قال البلْقِيني: أجَلُّ صيَغِ الحمدِ: الحَمدُ لله ربِّ العالمين، لأنها فاتحة الكتاب وخاتمةُ دَعْوَى أهلِ الجنَّة. فتتعيَّنُ في بِرٍّ: ليحمدن الله بِأجلِّ التحاميد، خِلافاً لِما في الروضة، وأصلُها عن المتولي أنَّ أجَلَّها الحمدُ لله حَمداً يُوافِي نِعَمَه ويُكافِي مَزيدَهُ ''.

الأمر بملازمة التقوى

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**وَبعدُ: فَأُوصِيكُم بتَقْوَى اللهِ**) **قُلتُ**: التقوى أنْ يَجعلَ العبدُ بينه وبين ما يخافه ويَحْذَرُه وقايةً تَقِيهِ منه. فتَقْوَى العَبدِ لِربّه أنْ يجعلَ بينه وبين ما يخشاه مِنْ ربّه، ومِنْ غَضبِه وسَخَطِه وعِقابِه، وقايةً تَقِيه مِنْ ذلك؛ وهو فِعْلُ الطاعات واجتنابُ المخالَفاتِ وتَرْكُ الشُّبُهاتِ. والتَّقوى تارةً تُضاف إلى اِسْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، كَقولِه تعالى: ﴿ **واتَّقُوا اللهَ ويُعلِّمكُم الله** ﴾، فالمراد بهذا: اِتَّقُوا غضبَه وسَخَطه، وانتقامَه مِمَّن يَعصيهِ ويخالفُ أَمْرَهُ، وهو أَعْظَمُ ما يُتَّقَى، وعن ذلك يَنْشأ عِقابُه في الدنيا والآخرة. نَعُوذُ بِاللهِ تَعالَى مِنْ عِقابِهِ.

وتارةً تُضاف التقوى إلى عقاب الله تعالى، إمَّا إلى مكانِه، وإمَّا إلَى زَمانِهِ. فالإضافةُ إلَى المكانِ كقَولِه تعالى: ﴿ **واتَّقُوا النَّارَ التي أُعِدَّتْ لِلكافِرِين** ﴾ وقولِه تعالى: ﴿ **واتَّقُوا النَّارَ التي وَقُودُها الناسُ والحِجارةُ..** ﴾. فهُنا التقوى أُضِيفَتْ إلى المكان الذي يقع فيه العقابُ وهو النار. نَعوذُ بالله تعالى منها.

والإضافة إلى الزمان كقوله تعالى: ﴿ **واتَّقُوا يَوماً تُرجَعُون فِيهِ إلى الله** ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ **واتَّقُوا يَوماً لا تَجزِي نفْسٌ عن نفْسٍ شيْئًا** ﴾. فأُضِيفَت التقوى هُنا إلَى الزمان الذي تقَع فيه العقوبةُ والانتقامُ مِنَ العُصاةِ، كما قال تعالى: ﴿ **كَيْفَ تَتَّقُونَ إنْ كَفَرْتُمْ يَوماً يَجْعَلُ الوِلْدانَ شِيباً السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بهِ** ﴾.

لِأَنَّ في كلٍّ مِنَ الأَمْرَيْنِ، وهو المكان والزمان، هَولاً عظيماً، وحساباً شديداً عسيراً سريعاً، يَجِبُ على العاقل أَنْ يَعملَ ما يَقِيه مِنْهُ، ويَدفعَ هَوْلَهُ عَنْه وفِتْنتَه وحِسابَه.

ولِهذا أُنْزِلَ في صُحُفِ مُوسَى عليه الصلاة والسلام كما في "صحيح ابنِ حِبان"، عن أَبِي ذَرٍّ مرفوعاً: « **عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ثُمَّ هُوَ يَضْحكُ، وعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالحِسابِ غَداً ثم لا يَعْمَل** ».

لِأجْلِ هذا كانت التقوى جماعَ الأمرِ ومفتاحَ كلِّ خيرٍ، وبابَ الوصول إلى رِضوانِ اللهِ تعالَى، والوسيلةَ إِلَى نَيلِ رحمتِه ومغفرتِه، والحِصْنَ الواقِي مِنْ عِقابِه وعذابِه. فلِهذا اِفْتَتَحَ الشيخُ رضي الله تعالى عنه هذه الوصيةَ بِها.

وبالتقوى وَصَّى اللهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه في جميعِ الكتبِ التي أنزلَها على أنبيائِه ورسلِه، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اِتَّقُوا اللهَ**﴾. وقال أبُو ذَرٍّ لِرَسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: أَوْصِنِي، قال: « **أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّه رأسُ الأَمْرِ كُلِّهِ** » رواه اِبنُ حِبان في «صحيحه»، والطبراني.

وكان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لا يَخْطُبُ خُطبةً إلا وصَّى فِيها بالتقوى. ولا يَتِمُّ أمرُ التقوى ويَكْمُلُ شرطُها، وتكون وقايةً لِصاحِبِها مِنْ عذابِ اللهِ تعالى حتى تَكون كما قال شيخُنا رضي الله تعالى عنه (**في السِّرِّ والعَلانِيَّةِ**)، يعني عندما يكون العبدُ وحده ومع غيره كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: « **أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ في سِرِّ أمْرِكَ وعَلانِيَّتِه** » رواه أحمد.

وأَمَّا تقوَى اللهِ تعالى في العلانيةِ وعند رُؤيةِ الناسِ وحُضورِهِم، وتَرْكها في السِّرِّ وعِندَ الخَلْوَةِ وغَيْبَةِ الناس، فَتِلْكَ تَقْوى المنافِقِين، والعِياذُ بالله تعالى. ولهذا كان مِنْ دعاءِ مولانا رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **اللهُمَّ أَسألُكَ خَشْيَتَكَ في الغَيْبِ والشهادة** »، وكان مِنْ دعائِه أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم: « **اللهم اِجْعَلْنِي أخْشاكَ حتَّى كأنِّي أراكَ، وأسْعِدْنِي بِتَقْواكَ** ».

وروَى الطبراني بسندٍ لا بأس به عن عَدِيِّ بنِ حاتِمٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **يُؤْمَرُ يَوْم القِيامةِ بِناسٍ إِلَى الجَنَّةِ حتَّى إذا دَنَوْا مِنْها وَاِسْتَنْشَقُوا رِيحَها ونَظَرُوا إِلَى قُصُورِها، وَمَا أَعَدَّ اللهُ تعالَى فِيهَا لِأَهْلِها، نُودُوا أَنْ اِصْرِفُوهُم عَنْها، لا نَصِيبَ لَهُم فِيها. فَيَرْجِعونَ بِحَسْرةٍ مَا رَجَعَ الأَوَّلُونَ بِمِثْلِها. فَيَقُولون: رَبَّنا لَوْ أَدْخَلْتَنا النارَ قَبْلَ أنْ تُرِيَنا مَا رأيْتَنا مِنْ ثوابِكَ، وما أعْدَدْتَ فيها لِأَوْلِيائِكَ كان أهْوَنَ عَلَيْنا. قال: ذلِكَ أَرَدْتُ بِكُم، كُنْتُمْ إِذَا خَلَوْتُمْ بَارَزْتُمونِي بِالعَظائِمِ، وإذا لَقِيتُمُ الناسَ لَقِيتُموهُم مُخْبِتِينَ تُراؤُونَ الناسَ بِخِلافِ ما تُعْطونِي مِنْ قُلوبِكم. هِبْتُمُ الناسَ ولَمْ تَهابُونِي، أَجْلَلْتُمُ الناسَ ولم تُجِلُّونِي، وتَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ ولَمْ تَتْرُكُوا لِي. فاليومَ أُذِيقُكُمْ أَلِيمَ العذابِ مع ما حُرِمْتُمْ مِنَ الثَّواب** ».

وكان الإمامُ أحمدُ رضي الله تعالى عنه يُنْشِد:

إذَا ما خلَوْتَ يوماً فَلا تَقُــلْ ** خلَوْتُ ولَكِـنْ قُلْ علَيَّ رقِيـبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفلُ ساعــةً ** ولا أَنَّ ما يَخْفَى عليه يغِيــبُ

الإقلاع عن الأمور التي توجب الحرمان

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: **(وبالإقْلاع عن الأمور التي تُوجِبُ الحِرْمانَ)**. **قُلتُ**: بعد أنْ أوصَى رضي الله تعالى عنه بالتقوى في السرِّ والعلانيةِ أَتْبَعَ ذلك بالوصية بالإقْلاع عن الأمور التي تُوجِبُ حِرمانَ العبدِ مِنَ النَّفحاتِ الرَّبانيةِ والمِنَحِ الإلهيةِ، والعَطايا الرَّحمانيةِ. وهذه الأمورُ التي تُوجِبُ الحِرمانَ كثيرةٌ، أعْظَمُها الغَفلةُ عن التوجه إلى الله تعالى، وتَركُ الخِدمةِ، ولُزُوم البِطالةِ، وإهْمالُ الجوارح بِعَدَمِ اِستعمالها في العِبادةِ ككَثْرةِ الصلاةِ والصومِ، والتلاوةِ والذِّكْرِ.

فإنَّ الإنسانَ إذا أعرَضَ عن الخِدمةِ وكَسلَ عن القيام بحَقِّ الربوبية، حُرِمَ مِنَ الوارداتِ الإلهيةِ والنفحاتِ التي يَمنَحُها اللهُ تعالى للعاملين المقْبِلين عليه. ولا يُمكِنُ أنْ تُنالَ تلك الوارداتُ بِدُونِ وِرْدٍ، وهو العملُ والقيامُ بالعبوديةِ وأداءُ حَقِّ الربوبيَّةِ. وفي هذا يقولُ اِبنُ الفارِضِ رضي الله تعالى عنه في ''نَظْم السُلوك'' بعد أَنْ ذكَرَ وُصولَه إلى التحقُّقِ إلى درجةِ الفَناءِ وعدمِ رؤيةِ الاثْنَيْنِيَةِ بِالْمَـرَّةِ:

رَجَعْتُ لِأَعْـمالِ العِـبادةِ عـــادةً ** وَأَعَـدَدْتُ أحْوالَ الإرادَةِ عُـدَّتِـــي

وَعُدْتُ بِنُسْكِي بَعْدَ هَتْكِي وَعُدْتُ مِنْ ** خَلاعَةِ بَسْطِي لِانْقِباضٍ بِعِفَّـــةِ

وَصُمْتُ نَهاري رَغْبَـةً في مَثُوبَـةٍ ** وَأَحْيَيْتُ لَيْلِي رَهْبَةً مِنْ عُقُوبَةِ

وَعَمَّـرْتُ أَوْقَـاتِـي بِوِرْدٍ لِـــــوارِدٍ ** وصَمْتٍ لِسَمْتٍ واعْتِكافِي لِحُرْمَـةِ

ولهذا قال شيخُنا الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: **(فإنَّ طلَبَ الإمْدادِ بِغَيْرِ اِسْتِعدادٍ كَالسَّفَرِ بِلَا زادٍ)**. **قُلتُ**: فَكما أنَّ السفرَ بِلا زادٍ ولا راحِلَةٍ يتَعَذَّرُ معه الوصولُ إلى المقصودِ وبلوغُ الغايةِ مِنَ الرحلة، كذلك يتعذَّرُ ويمْتَنِعُ الحصولُ على الإمداداتِ الرَّحْمانِيَّةِ، والمِنَحِ الصَّمدِيَّةِ بِدُونِ اِستعدادٍ لها بالأوراد والتوجُّهِ، والاجتهادِ في العِبادةِ؛ كما قال في « الحِكَم »: '' وُرُودُ الإمْدادِ بِحَسَبِ الاِستِعْدادِ، فَبِقَدْرِ المجاهَدَةِ تَكونُ المشاهَدةُ وبِقَدْرِ التَّخْلِيةِ تَكونُ التَّحْلِيَّةُ ''.

قال اِبنُ عَجِيبَة في ''شَرْح الحِكم'': ''وفائدةُ هذه الإمداداتِ تطهِيرُ القلوبِ مِنَ الأَغْيارِ، وتَقْدِيسُ اَلْأَسْرارِ مِنْ غَبَشِ الحِسِّ والأَكْدار، والوقوفُ مع الأنوار''.

قُلتُ: فكُلُّ لَحْظَةٍ بَلْ ولَمحةٍ تتوجَّه فِيها إلى الله تعالى، وتُقْبِلُ فِيها عليه تَنالُ فِيها مِنَ الإمْداداتِ الرَّبانيةِ على قَدْرِ ذلك، وتتعرَّضُ فيها للنَّفحاتِ الرَّحمانيَّةِ بِما يتَّفِقُ مع تَوجُّهِكَ وإقْبالِكَ؛ كمَا أشار إلى ذلك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِقولِه: « **إنَّ للهِ نَفَحاتٍ فَتعَرَّضُوا لَها** » رواه الطبراني في ''الأوسط'' بسندٍ ضعيفٍ عن محمدِ بنِ مَسْلَمَةَ. **(ورواه)** أيضاً بسندٍ حسنٍ مِنْ حديثِ أنَسٍ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **اِفْعَلُوا الخَيرَ دَهْرَكُم، وتعَرَّضُوا لِنَفَحاتِ رَحْمَةِ اللهِ، فإنَّ للهِ نَفَحاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ يُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه** ».

فأمَرَ صلى الله عليه وآله وسلم بِفعلِ الخيرِ دَهْرَنا لأجلِ التعرُّضِ لِلنفحاتِ الإلهية، لأَنَّ الحصولَ عليها ونَوالَها لا يكونُ إلَّا بِفِعلِ الخيرِ والإقْبالِ على التوجه والعبادة، ولِهذا قال اِبنُ عَطاءِ اللهِ في '' الحِكَم'': '' لا يَسْتَحْقِرُ الوِرْدَ إلَّا جَهُول ''.

قال اِبنُ عَجِيبة في شرْحِه: '' الوِرْدُ في اللغة هو الشرب. قال تعالى: ﴿ **بِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُود** ﴾. وفي الاصطلاح: ما يُرَتِّبه العَبدُ علَى نفسِه أو الشيخُ على تلميذِهِ منَ الأذكار والعبادات.. ثم قال بعد كلامٍ: وكيف يُستَحْقَرُ الوِرْدُ وبه يَكونُ الوُرودُ على الملِكِ المعْبود ؟!! ''.

قُلتُ: وإلَى هذا أشار رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِقولِهِ: « **لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أهلُ الجَنَّةِ إلَّا علَى ساعةٍ مَرَّتْ بهِمْ لَم يَذكُروا اللهَ تعالى فِيها** »، رواه الطبراني، والبيهقي بِسندٍ جيِّدٍ مِنْ حديثِ مُعاذَ بنِ جبَل. (ورواه) اِبنُ أبِي الدنيا والبيهقي مِنْ حديثِ عائشة بلفظ: « **ما مِنْ ساعةٍ تَمُرُّ بِابْنِ آدَمَ لَمْ يَذكُرِ اللهَ تعالَى فِيها بِخَيْرٍ إلَّا تَحَسَّرَ عليْها يومَ القيامةِ** ». **قُلتُ:** وإنَّما يتحَسَّرُ لِمَا يَرَى ما فاتَه في تِلكَ الساعة مِنَ الإمداداتِ والوارداتِ وحِرمانَه منها بِتَركِ الاستعدادِ لَها، والعَملِ على نَيْلِها وحُصولِها.

مراعاة الأنفاس في رضى الله تعالى

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله عنه ونفعنا به: **(وأُوصِيكُم بِمُراعاةِ الأنْفاسِ)**؛ **قُلتُ**: مراعاةُ الأنفاسِ هو ملاحظةُ الحركاتِ والسَّكَناتِ، والخَطراتِ والإراداتِ، في أنْ تَتَحرك أو تَسْكُنَ فِيما لا يُرْضِي اللهَ سبحانه وتعالى.

فالواجبُ على العاقلِ الحازمِ أنْ لا يغفَلَ عن محاسبةِ نفسِه، والتضييقِ عليها في حركاتِها وسكناتِها وخطراتِها، فإنَّ كلَّ نَفَسٍ مِنْ أنفاسِ العُمرِ جَوهَرةٌ نفِيسَةٌ لا عِوَضَ لَها، يُمكِنُ أنْ يَشتريَ بها كنزاً مِنَ الكنوز لا يتَناهَى نَعِيمُه أبداً. قال الغزالي في ''الإحْياء'': '' فإنْقِضاءُ هذه الأنفاسِ ضائِعةً أو مصروفةً إلى ما يَجْلِبُ الهلاكَ خُسرانٌ عظيمٌ هائلٌ لا تَسمَحُ بِهِ نفْسُ عاقِلٍ ''.

ولِهذا يقول أبُو الحَسَنِ الشَّاذلي رضي الله تعالى عنه في'' حِزب البَحر'': '' نَسأَلُكَ العِصْمَةَ في الحَرَكاتِ والسَّكَناتِ، والكَلِماتِ والخَطِراتِ، والإراداتِ مِنَ الظنونِ والشُّكوكِ والأوهامِ الساتِرَةِ للقُلوبِ عن مُطالعةِ الغُيُوب..''.

وإنَّما يَجِبُ مراعاةُ الأنفاس وحِفْظُها مِنْ أنْ تُصْرَفَ في غيرِ رِضَى اللهِ تعالى، لأنَّ كلَّ نَفَسٍ فيه للهِ عليكَ حقٌّ، فإذا أَضَعْتَه فَرَّطْتَ في حَقٍّ كان لكَ فِيهِ حَظٌّ عظِيمٌ مِنْ ربِّك. فَعَلَى قَدْرِ ما يفوتُكَ مِنَ الأنفاس ويَضِيعُ مِنْ مُراعاتِها يفوتُكَ مِنَ العِلمِ والمعرفةِ، وعلَى قدرِ ما يفوتُكَ مِنَ العِلمِ والمعرفةِ يَفوتُكَ غايَتُه وهو الوقوف مع الحضرَةِ بالآداب، والعُكوفُ على الباب بما يُدْرِجُكَ مع الأحبابِ. ولأجْلِ هذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما في ''السُّنن'': « **مِنْ حُسْنِ إسلامِ المَرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيه** ».

ولهذا كان أهمَّ ما يَعتني به السالِكُ لِطريقِ الآخرةِ مراقَبةُ الأنفاس، وتَركُ ما لا يَعْنِي، والإقبالُ في كلِّ وقتٍ على ما يَعْنِي؛ كما قالوا: ((أوقاتُ الفقِيرِ دائِرةٌ بين ذِكْرٍ ومذاكرةٍ، وفِكرةٍ، ونظرةٍ، ومَنْ خَلا عن هذا فهُوَ في بِطالَةٍ وفَتْرةٍ)).

وقال الإمامُ الشافعي رضي الله تعالى عنه: '' صاحَبْتُ الصوفيةَ فإنتَفعْتُ مِنهم بِكَلِمتَيْنِ وهُما: الوقتُ سَيْفٌ إنْ لَم تَقْطعْهُ قَطَعَك، والنَّفسُ إنْ لَمْ تَشْغَلْها بِالحَقِّ شغَلَتْكَ بِالباطِلِ ''.

وقال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه صاحِبُ الوصيةِ في رائِيَّتِه حاضًّا علَى عِمارَةِ الوقتِ بالذِّكرِ والاهتِبال به، وعدمِ الإصغاءِ لِمَنْ هُوَ في حَيْرةٍ مِنْ أمرِه:

فَعَمِّرْ بِهِ الأنْفاسَ فِي كُلِّ لحْظَةٍ ** وَإِيَّاكَ أَنْ تَصْغَى لِمَنْ لَهُ فِيهْ حَيْره

الأمر بحفظ الحواس عن المحرمات

وكما يَجِبُ على السالك مُراعاةُ الأنفاس، كذلك يَجِبُ عليه كما قال شيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**حِفْظُ الحَوّاس**)، وهي الجوارحُ الظاهرةُ: السمعُ، والبَصرُ، واللسانُ، واليَدانِ، والرِّجلان. فلا يَستعمِلُها إلا في طاعة الله تعالى وما فيه رضاه، لأنه مسؤولٌ عنها محاسَبٌ علَى إستعمالِها في غيرِ ما أمر اللهُ تعالى أَنْ تُستَعمَلَ فيه، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُولا** ﴾، وقال سبحانه: ﴿ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كانُوا يَعْمَلُون** ﴾.

وروَى أحمدُ، والحاكمُ وصحَّحَه، عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله تعالى عنه، أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **اِضْمَنُوا لِي سِتًّا أَضْمَنُ لَكُمُ الجَنَّةَ: أَصْدُقُوا إذَا حَدَّثْتُمْ، وأَوْفُوا إذا وَعَدْتُم، وأدُّوا إذَا اِئْتُمِنْتُم، واِحْفَظُوا فُرُوجَكم، وغُضُّوا أبْصارَكُم، وكُفُّوا أيْدِيَكُم** ».

الرِّضى بالمَوجود

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وَالرِّضَى بِالمَوْجُود**)؛ **قُلْتُ**: الرِّضَى بالموجود هو الاكتفاءُ بِعِلْمِه تعالى، وتقديرِه، وتدبيرِه لأمورِ العبدِ أحسَنَ تقديرٍ وأكمَلَ تدبيرٍ، وذلك ثَمَرةٌ مِنْ ثِمارِ المَحبَّةِ. قال الغزالي: "وهو مِنْ مقاماتِ المقرَّبين".

قُلتُ: وإنَّما كان كذلك لأنه يدلُّ علَى رِضا العبدِ بِما يعامله بِهِ ربُّه، فَلا يَرى فِيما يأْتِيه مِنَ اللهِ تعالى مِمَّا يَكْرهُه غَيرُه إِلَّا الخَير، فيَظهَرُ عليه أثَرُ ذلك وهو السرورُ والفرحُ. وإذا حصل العبدُ علَى هذا المقام كان مِمَّنْ قال اللهُ تعالى فِيهِم: ﴿ **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْه** ﴾. وروَى اِبنُ عَساكِر عن عائشة قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ رَضيَ عن اللهِ رضيَ اللهُ تعالى عنه** ».

فالكمال والخيرُ كلُّه في الرِّضا بِما يَبرزُ مِنَ الحضرة مِنْ غيرِ نظَرٍ إلَى ما تَمِيلُ إليه النفسُ وتَهْواه. كما روَى البيهقي في «الشُّعَب»، عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله تعالى عنه قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أيُّ العملِ أفْضلُ ؟ قال: « **الصبرُ والسماحةُ** ». قال: أريدُ أفْضلَ مِنْ ذلك. قال: « **لا تَتَّهِمِ اللهَ تَعالى في شيْءٍ مِنْ قَضائِه** ». فلِهذا أوصَى شيخُنا رضي الله تعالى عنه المريدَ السَّالِكَ بالرِّضَى بالموجود.

الصبر على المفقود

ثم قال رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(وَالصَّبْرِ علَى المفقود)**. **قُلتُ**: يعني مِمَّا يَلزمُ المريد السالك التمسك به الصبر على المفقود؛ والصبر هو حبْسُ النفس عن الجَزَعِ عند حُدوثِ ما يَكرهُه الإنسانُ، وهو مِنْ مَقاماتِ الدِّين، ومنزلٌ مِنْ منازل السالكين. فالصبرُ علَى ما يَفْقِدُه العبدُ مِنَ المألوفات، ويفُوتُه مِنَ الأمور المحبوبةِ إلَى النفسِ والهَوَى، وعدم الجزَعِ عنه، وحبْسِ النفس عن الحسْرةِ والسخطِ والحُزنِ على ذلك، يَصِلُ بِصاحِبِه إلَى مقام الصِّدِّيقين الذين جعلهم اللهُ تعالى أئِمَّةً بِما صبَروا، كما قال تعالى: ﴿ **وَجَعَلْنا مِنْهُم أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لما صَبَرُوا** ﴾. وفضلُ الصبرِ معروفٌ مشهورٌ، ذكرتُ ذلك بِتوسُّعٍ في الشرح الكبير والأوسط.

الوفاء بالعهود

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(وَالوفاءِ بالعهود)**؛ **قُلتُ**: يعني يجِبُ على المريدِ أنْ يحفَظَ عهودَه مع الله تعالى، فإنَّ نقْضَ العهدِ في طريق الإرادةِ كالرِّدَّةِ عن الدِّين لأهلِ الظاهِرِ، كما قال القُشَيْرِي في ''رسالته''، فَمَنْ عاهد اللهَ تعالى على شيءٍ مِنَ القُرباتِ ثم نقَضَ عهدَهُ ورجَعَ فيه، فذلك دليلٌ على نِفاقِه وفسادِ حالِه؛ كما قال تعالى: ﴿ **ومِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللهَ لَئِنْ أتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِين. فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُون. فأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِم إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللهَ ما وَعَدُوهُ وبِما كانُوا يكذبون** ﴾.

وقال تعالى: ﴿ **وَأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْؤُولا** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **يا أَيُّها الذينَ**

آمَنُوا أَوْفُوا بِالعقُود ﴾، قال اِبنُ عباس، ومُجاهِد، وغيرُ واحدٍ: يعني بالعقود: العهود.

فاِحْرِصْ ـ أيُّها المريدُ الصَّادِقُ ـ على الوفاء بما عاهدْتَ اللهَ تعالى عليه مِنَ الطاعات، والعبادات، وأوَّلُها التوبةُ والإقلاعُ عن المخالَفاتِ. والله وليُّ التوفيق.

الإكثار من الصلاة

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(وكثْرةِ الركوعِ والسجودِ)**، **قُلتُ:** يعني ينبغي لِلمريدِ السَّالِكِ أنْ يُكْثِرَ مِنَ الصلاة، وتَكونَ أكْبَرَ هَمِّهِ وأعظمَ شُغلِهِ، وأكثرَ ما يَصْرِفُ فِيه وقْتَه. لأنَّها مِنْ أعظَمِ العِبادات وأفضلِ القُربات، وأزكَى الوسائلِ إلى اللهِ تعالى بَعد كلمةِ التوحيد. ولهذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه الطبراني، عن أبي هريرة: « **الصَّلاةُ خيرُ موضوعٍ، فَمَن اِستطاعَ أنْ يَستَكْثِرَ مِنها فلْيَستَكْثِرْ** ».

وروَى اِبنُ شاهين في ''الترغيب'' عن أنَسٍ رضي الله عنه: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إذا أحَبَّ رَجُلاً وأَعْجَبَهُ أَمَرَهُ بِالصَّلاةِ** ».

وروَى اِبنُ ماجه بسنَدٍ جيِّدٍ عن أبِي فاطمةَ قال: قُلْتُ: يا رسولَ الله، أخْبِرني بِعَملٍ أستَقِيمُ عليه وأعْمَلُه. قال: « **عَلَيكَ بِالسجُودِ، فإنَّكَ لا تَسجُدُ للهِ سجْدةً إلَّا رفَعَكَ اللهُ تعالى بها درجَةً وحَطَّ عنْكَ بِها خطِيئةً** ». وفي روايةٍ أخرى عند أحمد في ''المسند'': قال: قال لي نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم:« **يا أبَا فاطِمةَ، إنْ أرَدْتَ أنْ تَلْقانِي فَأَكْثِرِ السُّجُود** ».

قُلتُ: والسِّرُّ في هذا أنَّ المصلِّي يُناجي ربَّه، وَ« **أقرَبُ ما يَكونُ العَبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجِدٌ** » كما ورَدَ في الحديث. ولأَجْلِ هذا كانت قُرَّةُ عَينِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة كما ورَدَ. وقال: « **أرِحْنا بِها يَا بِلالُ** » كما في ''السُّنن''، يعني به: الرَّوح، رَوْحُ المقام بين يَدَيِ اللهِ تعالى.

قال الترمذي الحكيم في كتاب ''الصلاة ومقاصدها'': '' ولَمْ يَقُل أرِحْنا مِنْها كما تأوَّلَه أهلُ الغَفْلةِ ''.

قلت: ومعلومٌ لِكلِّ ذِي لُبٍّ أَنَّ الرَّوْحَ والراحةَ والسكينةَ والنورَ في الساعة التي يكون العبدُ فِيها قريباً مِنْ ربّه واقِفاً بين يديه يناجِيه؛ كما قال صلى الله عليه وآله وسلم في الحديثِ الصحيحِ: « **الصلاةُ قُرْبانٌ** ».

ففِي الصلاةِ جَلاءٌ لِلقلبِ عن كلِّ ما يَحْجُبُ العبدَ عن ربّه، وفِيها تصفِيَةُ الصدورِ مِنَ الهُموم والأحزان، ويَرفعُ اللهُ تعالى بها الكروبَ والآلام. ولهذا كان النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا حَزبَه أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة.

حتَّى الأمراض البدنية والعِلل الحِسّية كان يأمرُ صلى الله عليه وآله وسلم بالصلاة لِعِلاجها، كما في «سُنن اِبنِ ماجه»: أنَّ أبا هريرةَ رضي الله تعالى عنه اِشتَكَى بطْنَه فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **صَلِّ فَإِنَّ في الصلاةِ شِفاءٌ** ».

التدبير لله تعالى

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وتَرْكِ التدبيرِ والاختيارِ مع المُدَبّرِ المُختار**)؛ **قُلتُ**: لأنَّ تَرْكَ التدبير والاختيار مع الله تعالى مِنْ كمال الإيمان بقضاء الله تعالى وقَدَرِه، والإِيقانِ بأنَّه الآخذُ بِنَواصي عِبادِه، فكُلُّهم في قبضتِه وتحْتَ حُكمِه وقهْرِه.

فالمنازِعُ في شيءٍ مِنْ ذلك جاهلٌ تامُّ الجهل، بل بعيدٌ عن الإيمان ضعيفُ الإيقانِ، مريضُ القلبِ، أعْمَى البصيرةِ، مَسْلُوبُ التوفيق. ولهذا كان التدبيرُ والاختيارُ شأْنَ الضعفاء المبتَدِئين مِنَ العباد والمريدين، الذين تَتَنازعُهُم نَزَعاتُ النفس، ووسواسُ الشيطان. أمَّا الراسخون في العِلم، المتمكِّنُون الأقوياءُ في اليقين فَلا يُدبِّرون مع الله تعالى أمراً، ولا يحاولون اِختياراً، بل تدبيرُهم في ترْكِ التدبير واِختيارُهُم فِيما آتاهُم مِنْ عند الله تعالى.

وبهذا كانوا دائماً في رَوْحٍ وراحةٍ، وسكينةٍ وطمأنينةٍ، كما أشار إلى ذلك الحقُّ سبحانه وتعالى بقولِه: ﴿ **ما أصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا فِي أنْفُسِكُمْ إلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرأَها إنَّ ذلِكَ علَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْ لَا تَاسَوْا علَى ما فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِما آتَاكُمْ** ﴾.

وإنما حَمَل الإنسانَ علَى التدبير والاختيار جهلُه الكاملُ بِأَنَّ الله تعالى يختار لِعبدِه أحسَن مِن اِختيارِه ويُدبِّرُ أمورَه أَكمَل مِنْ تدبيرِهِ. فَلو تحقَّق بِأنَّ تدبيرَ الله تعالى وإختيارَهُ لِلعبد أفضلُ وأحسنُ مِنْ تدبيره وإختيارِه لنفسه، لَاِطْمأَنَّ لِتدبيرِ اللهِ تعالى له وإختيارِه، وتَركَ منازعَةَ اللهِ تعالى في حُكمٍ مِنْ أحكامه، لا فيما يُحِبه وتَهْواه نفسُه، ولا فِيما يَبْغَضُه ويَكرهُه.

وإلَى هذا أشار اِبنُ عَطاءِ اللهِ في ''الحِكَم'' بِقولِه: '' أَرِحْ نفْسَكَ مِنَ التدبيرِ، فما قام به غَيرُكَ عنْكَ لا تَقُمْ بِهِ لِنَفْسِكَ ''. وقد شرحتُ هذا الموضوعَ في الشرح الكبير بما فيه الكفاية والشِّفاء مِنْ همِّ التدبير.

التأكيد على العمل بالسنة المطهرة

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(والعَملِ بِالسُّنَّة)**؛ **قلتُ**: لأنَّه لا يَتِمُّ شيءٌ مِنَ الأحوال والمقامات، والأعمال والأقوال، إلَّا إذا كان على منهاج السنَّةِ، وبِدُونِ السيْرِ على منهاجها والسلوكِ على طريقِها لا يَقْبلُ اللهُ تعالى شيئًا مِنْ ذلك، ولا يَنظرُ إليه، ولا يَرضَى عن صاحِبِه، كما وَرَدَ في الحديث الصحيح: « **مَنْ عَمِلَ عَملاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُوَ ردٌّ** » أيْ مردودٌ غيرُ مقبولٍ.

وقال سيِّدُ الطائفة أبُو القاسِمِ الجُنَيد رضي الله تعالى عنه: '' الطُّرُقُ كُلُّها مَسْدُودَةٌ على الخَلْقِ إلَّا علَى مَنِ اِقْتَفَى أَثَرَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم ''.

وقال أبو سليمانَ الدَّارانِي رضي الله تعالى عنه: '' رُبَّما يَقَعُ في قَلْبِي النُّكْتَةُ مِنْ نُكَتِ القَومِ أيّاماً، فَلَا أقْبَلُ مِنْهُ إلَّا بِشاهِدَيْنِ عَدْلَيْنِ: الكِتابُ والسنَّة ''.

وقال اِبنُ عَطاءِ الله السَّكَنْدَرِي في ''تاج العَروس الحاوي لِتَهْذيبِ النُّفوس'': '' وَلا يَدخُلُ عَليكَ الإهمالُ إلَّا بِإِهْمالِكَ مُتابعَةَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ولا تَحْصلُ لكَ الرِّفْعةُ عند اللهِ تعالى إلَّا بمتابعةِ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ''.

قُلتُ: وبِمتابعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ينال العبدُ محبةَ اللهِ تعالى له، وهي كَعبةُ

القاصِدين، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾. وكلامُ أهلِ الطريق وكِبارِ أئِمَّتِها في لُزوم العملِ بالسُّنَّةِ، وتَحكيمِها في الأعمال والأقوال، كثيرةٌ يَطولُ ذِكرُها. وقد ذَكرتُ في الشرح الكبير بعضَ ما يُحتاجُ إليه مِنْ ذلك.

فكَيفَ يَدَّعِي الصوفيُّ الذي يُخالِفُ سُنَّةَ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم في عَملِه وقولِه، اِتِّباعَ أهلِ الطريقِ وهو خارجٌ عن مناهجِهم في أهَمِّ أصلٍ مِنْ أصولِهم وأعظمِ شَرطٍ في صِحَّةِ طَريقِهم ؟!!

فاِعْلَمْ هذا وتحقَّقْه، ولا تَسمَعْ لِمنْ لَمْ يَعلَمْ ولَمْ يتَذوَّقْ، وهُمْ كثيرٌ مِمَّنْ يدَّعِي التصوفَ لا سيما في هذا الوقتِ المُظلِم.

الإقتداء بالأئمة

ثم قال إمامُنا وشيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(والاقْتِداءِ بالأئِمَّةِ)**؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي للمريد الصادق أنْ يقتدِيَ بالأئمةِ ورجالِ السلَفِ، فِيما كانوا عليه مِنْ سَنِيِّ الأحوالِ، وجميلِ الأخلاق، والإقبالِ علَى العِبادةِ، والزهدِ في الدنيا والإعراضِ عن كلِّ ما فيه حَظٌّ لِلنفسِ والهَوَى، وتَركِ المَألُوفاتِ، والإقْبالِ على المجاهدة، كَشِدَّةِ الجُوعِ والسَّهَرِ، ومحبةِ الخُمولِ، والإيثارِ، وبَذْلِ المجهودِ في الخِدمةِ، والقِيامِ بالعبودية مع التَّمسكِ بالسُّنَّةِ، والمحافظةِ علَى آدابِ الشريعةِ؛ وهذا مِنَ المقاصد التي جَمَعَ مِنْ أجْلِها العُلماءُ أخبارَ السَّلفِ ودوَّنُوها في تَراجِمِهِم، لأنَّ ذلك حافِزٌ لِلنفسِ على العملِ بِمثلِ ما عَمِلوا والتخلُّقِ بِمِثْلِ أخلاقِهِم.

بل قالوا إنَّ ذِكرَ العلماءِ وحكاياتِ الصالحين واقْتِصاصَ أحوالِهم أنْفَعُ لِلنفْسِ بِكثيرٍ مِنْ مجرَّدِ الوعظِ والتذكيرِ بالقولِ. ولهذا قال اِبنُ عُيَيْنَةَ: "بِذِكْرِ الصَّالِحينَ تَنْزِلُ الرَّحمةُ". قال الغزالي رضي الله عنه في "الإحياء": "وليْسَ يَنْزِلُ عند الذِّكرِ عَيْنُ ذلك، ولكِنَّ سَبَبَهُ هُوَ اِنْبِعاثُ الرغبةِ في القلبِ وحَركةُ الحِرصِ علَى الاقتداءِ بِهِم والاستِنكافِ عَمَّا هو مُلابِسٌ لَهُ مِنَ القُصور والتَّقصيرِ. ومَبْدأُ الرحمةِ فِعلُ الخيرِ، ومَبدأُ فِعْلِ الخيرِ الرغبةُ، ومَبدأُ الرغبةِ ذِكرُ الصالِحين. فهَذا معنَى نُزولِ الرحمةِ.." اهـ المراد مِنه.

ولهذا لَمْ يَزِلْ دَأْبَ أهلِ الطريقِ وأئمةِ أهلِ التحقيقِ ذِكرُ المناقِبِ وفضائلِ الأخيار في كُتبِهم، ومجالِسِ عِلْمِهم، وحِلَقِ مُذاكَرتِهم، لإنْهاضِ الهِمَمِ وتَشْحِيذِ العَزائمِ لِلعملِ والتخلُّقِ بأخلاقِهم والسَّيْرِ على سِيرتِهم. وقد أشار اللهُ تعالى في القرآن إلى هذا المعنَى حيث قال في شأْنِ القَصصِ: ﴿ **وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴾.

فكلُّ هذا لأجْلِ أَنْ يقتديَ المريدُ بِالصالِحِ الصابرِ المجتهِدِ مِمَّنْ سَلَفَ، لِيَنالَ ما نَالُوه، ويتَقلَّبَ فِيما تقَلَّبوا فيه مِنَ المقامات والأحوال. ولِهذا قال الجُنَيْدُ: "الحِكاياتُ جُنْدٌ مِنْ جُنودِ اللهِ، تَقْوى بِها قُلوبُ المُريدين. قِيلَ له: فهَلْ في ذلك شاهِدٌ ؟ فقال رضي الله تعالى عنه: قولُه تعالى: ﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ** ﴾.

مرافقة أهل الطاعة والصلاح

ثم قال إمامُنا وشيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**ومُرافَقَةِ المُتَبَتِّلِ الطَّائِعِ**)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي لِلمريدِ أَنْ يَصْحَبَ الصالحين المتَّقِينَ الطائعين المنقَطعِين إلى اللهِ تعالى. لأنَّ ذلك له أثرٌ عظيمٌ في صلاح العبدِ وتهذيبِ أخلاقِهِ وتزكيةِ القلْبِ وتَنويرِهِ. لأنَّ الطبعَ يَسرِقُ مِمَّا يُشاهده ويُخالِطُه، لا سِيَّما إنْ كان على المداومة والاستمرار.

فمَنْ صاحَبَ أهلَ الصلاح والخير فلا بُدَّ أَنْ يَسرِقَ طَبعُه مِنهم ويَمِيلَ إلى أحوالِهم، كما أشار إلى ذلك نبيُّنا صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: « **المَرءُ علَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أحدُكم مَنْ يُخالِل** ». وقال عليُّ بنُ أبي طالِبٍ عليه السلام:

فَلا تَصْحَبْ أَخَا الجَهْلِ ... **وَإِيَّاكَ وَ إِيَّاهُ**
فَكَمْ مِنْ جاهِلٍ أَرْدَى ... حَلِيماً حِينَ آخَاهُ
يُقاسُ المَرْءُ بِالمَرْءِ ... إذا مَا المَرْءُ مَاشاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ ... مَقَايِيسٌ و أَشْباهُ

مجالسة أهل الإنابة إلى الله تعالى

ثم قال شيخُنا الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(ومُجالَسَةِ المُنيبِ الخَاشِعِ)**؛ **قُلتُ**: وهـذا أيضاً ممَّا ينبغي لِلمريـدِ الحرصُ عليه، والاهتمامُ بـه، وهـو مجالَسةُ أهـلِ الإنابـةِ إلَى اللهِ تعالى، السَّاكِنِينَ إليه، الخاشعِين لَهُ، المقْبِلِينَ عليه، فإنَّه إنْ لم تستَفِدْ مِنْ عِلمِهِم وكلامِهِم وإشارَتِهِم، اِستفَدْتَ مِنْ حالِهِم وهَدْيِهِم وسَمْتِهِم.

كما بيَّنَ ذلك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح بقولِه: « **مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مثلُ العَطَّارِ، إنْ لَم يَنَلْكَ مِنْهُ أصابَكَ مِنْ رِيحِهِ، ومَثَلُ جليسِ السُّوءِ مثلُ الحَدّادِ إنْ لَمْ تُصِبْكَ نارُهُ أصابَكَ شَرارُه** ». ورَوَى أبُو يعلَى بسندٍ حسنٍ عن اِبنِ عباس قال: قِيلَ: يا رسولَ الله، أيُّ جُلَسائِنا خَيرٌ ؟ قال: « **مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللهَ رؤيَتُه، وزادَ في عِلْمِكُم مَنْطِقُه، وذَكَّرَكُم في الآخرةِ عَمَلُه** ».

وفي هذا يقول اِبنُ عَطاءِ اللهِ في ''الحِكَم'': '' لَا تَصْحَبْ مَنْ لا يُنْهِضُكَ حالُه، ولَا يَدُلُّكَ على اللهِ مَقالُه ''.

فالفائدةُ مِنَ المجالَسةِ هي الاستفادةُ والانتفاعُ بِما يعودُ علَى المرءِ بالصَّلاحِ في دِينِه وأمورِ مَعادِهِ وآخرتِه، فإنْ لم تَكُنْ علَى هذا المنوال فلا فائدةَ فيها مطلقاً، بل تعودُ على صاحِبِها بالضرر العظيم في دِينِه كما هو مُشاهَدٌ، فما أفْلَحَ مَنْ أفْلَحَ إلَّا بِمصاحبَةِ مَنْ أفْلَح.

معاشرة الأوفياء

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(ومعاشَرَةِ الوفِيِّ الخاضِعِ)**؛ **قُلتُ**: لأنَّ المطلوبَ مِنَ المعاشَرِ أَنْ يكونَ حَسَنَ الأخلاقِ جَميلَ الصِّفاتِ، كريمَ الأحوالِ شريفَ الأعمال، لِتكونَ معاشَرتُه نافعةً في الدِّينِ والدنيا. وهـذا لا يكون إلا في معاشَرَةِ الوفِيِّ لِلعَهْدِ، المحافِظِ علَى

أواصِرِ الأُخُوَّةِ بِخَفْضِ الجَناحِ، والخضوعِ والرأفةِ والرحمةِ، والنصيحةِ، وتَحَمُّلِ الأخطاءِ، والصَّفْحِ عن الزَّلاتِ. وهذه الأمور هي ثَمَرَةُ الأُلْفَةِ، فمَنْ خَلا منها فلا فائدةَ في معاشرتِه.

زيارة الصالحين

ثم قال الشيخ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(وزيارةِ السَّاجِدِ الراكِعِ)**؛ **قُلتُ**: لأنَّ زيارةَ الصالحين وأهلِ الكمالِ في الأحوال والأعمال، المقْبِلينَ على العِبادةِ، لها أثرٌ عظيمٌ في تنويرِ القلبِ، وتهذيبِ النفسِ، وتزكيةِ العملِ، إذا كانت بِنِيَّةٍ صالحةٍ، ومحبةٍ صادقةٍ، وغِبْطَةٍ لِمَا هُمْ عليه مِنَ الإقبالِ علَى اللهِ تعالى، والاجتهادِ في العبادةِ والركوعِ والسجودِ، مع ما فيها مِنَ الأجرِ العظيمِ والثواب الجزيل مِنَ اللهِ تعالى.

قال الشيخُ عبدُ الحَليمِ بنُ مُصلِح: "ما خرَجَ أحدٌ لِزيارةِ عالِمٍ أو صالِحٍ لِيَستفِيدَ عِلماً أو أدباً، إلَّا ورجَعَ بِما كان فَوْقَ أمَلِهِ مِنْ ذلك. وما خرَجَ أحدٌ لإِنْكارٍ أو اِنْتِقادٍ إلَّا ورجَعَ مُحَمَّلاً بالأوزار".

قُلتُ: لأنَّ الزيارةَ مأخوذةٌ مِنَ الزَّوْرِ وهو المَيْلُ؛ يقال: زار فلانٌ فلاناً إذا مالَ إليه. ومِنْ شَرْطِ صحَّةِ مَيْلِ الشخصِ أنْ يكونَ ذلك بِظاهِرِهِ وباطِنه. فظاهِرُهُ يَقْتَبِسُ مِنْ مُجالَسةِ الصالِحِ والعالِمِ العامِلِ، ما يُفِيدُ ويَنْفع؛ والباطنُ يَتخلَّق ويَمتَثِلُ لِمَا يَسمَعُ مِنَ الحكمةِ، فَيَظهرُ ذلك علَى الجوارِحِ.

فزيارةُ أهلِ الصلاحِ وأربابِ الأحوالِ الصالحةِ كُلُّها فائِدةٌ، وتُعتبرُ تَلْقِيحاً لِلزائرِ كَتَلقِيحِ النَّخْلِ. فَلِأَجْلِ هذا أَوْصَى بها الشيخُ رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به في هذه الوصيةِ الجامعةِ، لِمَا يحتاجُ إليه المُريدُ في صلاح نفسِه وتَهْذيبِ أخلاقِه.

كُنْ جوّال الفكر..

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: **(وَكُنْ يا أخِي جَوَّالَ الفِكْرِ)**؛ **قُلتُ**: لأنَّ جَوَلانَ الفِكر في الأسرار الإلهيَّةِ والتدبرَ والاعتبارَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ،

يَدخلُ به العبدُ إلى ميدانِ التحقُّقِ بالمعارف الربانِيَّةِ، والتجلِّيَّاتِ الرَّحمانِيَّة، كما قال ابنُ عطاءِ اللهِ في ''الحِكَم'': '' ما نَفَعَ القَلْبَ شَيْءٌ مِثْلَ عُزْلَةٍ يَدخُلُ بِها مَيْدانَ فِكْرةٍ ''.

لأنَّ بذلك يَحصلُ اليقِينُ الراسخُ بتوحيدِ اللهِ تَعالى وكمالِ قُدرتِه، كما قال تعالَى: ﴿ **وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ** ﴾.

فجَوَلانُ الفِكرِ في صُنعِ اللهِ تَعالى، وفي المَصِيرِ الذي يَنتَظِرُ العَبدَ، أصْلُ كلِّ طاعةٍ لِمَنْ رَزَقَه اللهُ تعالى فَهْمًا صحيحًا، وقلباً سليماً، وفَقاهَةً في النَّفسِ. وكان سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ رضي الله تعالى عنه كثيراً ما يَتَمَثَّلُ:

إِذَا اِمْرُؤٌ كانتْ لَهُ فِكْرة فَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ عِبْرة

وقال الحَسَنُ في قولِه تعالى: ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ** ﴾، قال: '' أمنَعُهُم التَّفكرَ فِيها ''. وانظُرْ بقيَّةَ الكلام على فوائِدِ التفكرِ ونَتائِجِه في الأصل.

كُنْ جوهَرِيَّ الذِّكرِ..

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**جَوْهَرِيَّ الذِّكْرِ**)؛ **قُلتُ**: يعني أَنْ تَكونَ أيُّها المريدُ ذاكراً اللهَ تعالى بِلِسانِكَ وقَلبِكَ معاً، فلا تكُنْ ممَّنْ يَذْكُرُ اللهَ تعالى بِلِسانِه وقَلبُه غافِلٌ ساهٍ.

فإنَّ الذِّكرَ على هذه الحالةِ لا يَنفعُ القَلبَ ولا يُكْسِبُ النورَ ولا يُطَهِّرُ السِّرَّ مِنَ الأغْيار. والفائدةُ مِنَ الذِّكرِ هو تطهيرُ القلبِ مِنَ الأكدارِ والنَّظَرِ إلى الأغيار. ولا يَحصلُ ذلك إلا إذا كان الذِّكرُ بِاللِّسانِ والقلبِ معًا، وبِذلك تَظهَرُ لَمَحاتُ الأنوارِ وتَنكشِفُ الأسرارُ ويَحْصُلُ الاطمئْنانُ بِالعَزيزِ الغَفَّار، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلوبُ** ﴾، ولم يَقُلْ تَطمئِنُّ الأَلْسِنَة. وإذا لَمْ يَكُنِ القَلبُ ذاكراً فكَيفَ يَحصلُ له الاطمئنانُ والسُّكونُ إلى اللهِ تعالى ؟؟

ولِهذا قال أهلُ الطريقِ مِنْ آدابِ الذِّكرِ تَغْمِيضُ العَيْنَيْنِ لِكَيْ تَسْتَدَّ طُرُقُ الحَوَاسِّ الظاهِرةِ، وبِسَدِّها تَنفَتِحُ حَواسُّ القلبِ. كلُّ هذا لِيَلَّا يَجُولَ القلبُ ساعةَ الذِّكرِ في غيرِ المذكورِ

فتَفُـوتَ الفائدةُ مِنَ الذِّكرِ، التي هي طهارةُ القلبِ مِنَ الأكدارِ والرُّكونِ إلى الأغْيار.

فلِهذا أوصَى الشيخُ رضي الله تعالى عنه بِأنْ يَكونَ المريدُ جَوهرِيَّ الذِّكْرِ. وجوهرُ الشيءِ خالِصُهُ مِنَ الشَّوائِبِ والآفاتِ والعِلَلِ المانعَةِ مِنَ الانتِفاعِ به على حقِيقَتِه.

كُنْ كثيرَ العِلم..

ثم قال الشيخ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**كَثِيرَ العِلْمِ**)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي لِلمريدِ السَّالِكِ أنْ يَكونَ كثيرَ الطَّلبِ لِلعِلمِ الذي يَدلُّهُ علَى العِلَلِ النَّفسانيةِ والأمراضِ الباطنيةِ، حتى يَقِفَ علَى دقائقِ العِلَلِ والأمراضِ المانعةِ مِنَ الحصولِ على الكمالِ في معرفةِ اللهِ تعالى. فإنَّ الأمراضَ الباطنةَ والعِلَلَ النفْسِيَّةَ مِثلُ الأمراضِ الظاهرةِ.

فَكَما أنَّ هذه تَكثُرُ وتتنوَّعُ، فمِنْها ما يَكونُ ظاهراً يَعرفُه المبتدِئُ في عِلمِ الطبِّ، ومنها ما يَخْفَى ويَدِقُّ ويَعْسُرُ عِلاجُهُ إلَّا علَى الماهِرِ الخبيرِ بعِلْمِ الطبِّ.

فكذلك العِللُ النفْسِيَّةُ والأمراضُ المعنويةُ تتنوَّعُ، بل هي أكثرُ تنوُّعاً مِنَ الأخرى حتَّى لا يُمكِنُ الوقوفُ عليها بِقليلِ العِلمِ. بل لا بدَّ مِنَ الخوضِ في عِلْمِ الطَّريقةِ، والبحثِ في دقائِقِه مع مطالعةِ أخبارِ السلفِ رضي الله تعالى عنهم في مجاهدتِهِمْ لِنُفوسِهِم، لِتَستَنِيرَ بِهَديِهِمْ في ذلك وتَسلُكَ سبيلَهم الذي سلكوه في معالجة تلك الأمراضِ والوقوفِ على خَفايا تِلك العِلل.

لأنَّ كثيراً مِنْ تلك العِللِ تَخفَى وتَدِقُّ حتَّى يَظُنَّ المصابُ بها أنَّه سالمٌ مِنْ كلِّ عِلةٍ وكلِّ مرضٍ، مع أنَّه غارقٌ فيها ومريضٌ بِعِلَلِها. فإذا لم يُكثِرْ مِنَ العلمِ الذي يُعَرِّفُه بِتلك العِلل ويُوقِفُه على ما فيه مِنْ دائِها ومرضِها، يَموتُ وهو عليلٌ مريضٌ بعيدٌ عن رِضَى اللهِ تعالى، جاهِلٌ بِه.

كَما قال أبو الحَسَنِ الشَّاذِلي رضي الله تعالى عنه: ((مَنْ لَمْ يَتَغَلْغَلْ في عِلْمِنا هذا، ماتَ مُصِرًّا علَى الكَبائِرِ وهُوَ لا يَشْعُر)). ولهذا قال أهلُ التحقيقِ مِنْ رِجالِ السَّلَفِ وأئِمَّةِ الطَّرِيقِ في قولِه صلى الله عليه وآله وسلم: « **طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ على كُلِّ مُسْلِمٍ** » : هُوَ عِلمُ الإخلاص وآفاتِ النُّفوسِ وأمراضِ القَلْبِ المعْنويةِ. لِأنَّ بِهذا العِلمِ اِرتَفَعَ العُلماءُ العامِلونَ حقِيقةً وبِتَحْقِيقِه أَدْرَكوا مَا أَدْرَكُوا مِنَ المعْرِفَةِ بِاللهِ تعالى؛ وبِسبَبِه ظَهَرَ عليهم أثَرُ الخَشيَةِ والعُبودية، وقاموا بِما يجِبُ مِنْ حقوق الرُّبوبِيَّةِ.

وأمَّا غيرُهُم مِنْ أهلِ العُلومِ، فَهُمْ بِمَعْزِلٍ عن هذا كلّه، بَلْ تَجِدُهُم أبْعَدَ النَّاسِ عن الفضائل والكمالات، نُفوسُهم مريضةٌ بِالكِبْرِ والفخْرِ، والمباهاةِ، وحُبِّ الظُّهورِ، والإقبال على الدنيا، وقُلوبُهم عَليلَةٌ بِالهَوَى والرِّياءِ، والنَّظَرِ إلى المخلوق. وهذه كلُّها مِنْ كبار المعاصي وقبائح الذنوب، وقَعَ فيها عُلماءُ الرُّسومِ وهُمْ يظنُّون أنَّهُم قادَةُ الناسِ وَساداتُهُم، مع أَنَّ العامَّةَ أفْضلُ مِنهم وأقْربُ إلى اللهِ تعالى؛ وَمِنْ هُنا قال الأئِمَّةُ كالغَزالي وغيرُه: عِلمُ التَّصوُّفِ فَرْضُ عَيْنٍ على كُلِّ أَحَدٍ. لِأنَّ العملَ عَلَى النَّجاةِ مِنَ النارِ وعِقابِ اللهِ تعالى واجِبٌ على كُلِّ أَحَدٍ، والتصوفُ هو العِلمُ الوحِيدُ الذي يَدُلُّ العَبدَ على ما خَفِيَ فِيهِ مِنْ قَبائحِ الكبائرِ وعَظيمِ الذنوبِ، وَسَيِّءِ المعاصي. لأنَّه عِلمٌ كلُّه يتعلق بأعمال القَلْبِ وأحوالِه، وما يُفْسِدُهُ ويُصْلِحُه، ومَا يَراه الإنسانُ لا شَيْءَ وهُوَ مِنْ أعْظَمِ القَواطِع عنِ اللهِ تعالى.

وما كان هكذا، فهُوَ العِلمُ النافعُ الذي يجبُ علَى كُلِّ مُسلمٍ أَنْ يأخذَ مِنْهُ ما يُعَرِّفُه بِعِلَلِهِ وأمراضِهِ الموجِبةِ له المقْتَ؛ كما أخبرَ بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: « **العِلمُ عِلْمان: عِلمٌ في القلبِ فَذلك العِلْمُ النَّافِعُ، وعِلْمٌ على الِّلسانِ فَذلِكَ حُجَّةُ اللهِ على اِبنِ آدَم** ». رواه الخطيبُ في "تاريخه" بِسندٍ حسنٍ عن جابر كما قال المنذري. ورواه اِبنُ عبدِ البرِّ في كتاب "العِلم" عن الحَسَنِ مُرسَلا، ورواه أبو بكرٍ اِبنُ خَيْرٍ الإِشْبِيلِي في "فِهْرَسَتِه" مِنْ حديث اِبنِ عمرَ مرفوعاً.

ورواه الأَصْبَهاني في "الترغيب"، والديلمي في "مسند الفردوس"، عن أَنَسٍ مرفوعاً بلفظ: « **العِلمُ عِلمان: فعِلمٌ ثابتٌ في القلبِ فذلك العِلمُ النافعُ. وعِلمٌ فِي الِّلسانِ فَذلِكَ حُجَّةُ اللهِ تعالى علَى عِبادِهِ** ». وقد أفادَ الحديثُ أَنَّ العلمَ النافعَ هو الثَّابِتُ في القَلبِ، وهُوَ العِلمُ الذي يتعلَّقُ بالإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ وأحْوالِ القَلْبِ، كالخَوْفِ والرَّجاءِ، والصِّدْقِ، والصَّبرِ، واليقِينِ، والمحَبَّةِ، والفَاقَةِ، والافْتِقارِ، والتَّفكُّرِ، والتَّوكلِ، والرِّضا، والشكْرِ، والحَياءِ، والزُّهْدِ، والمراقَبَةِ، إلَى غيرِ هذا مِمَّا تَجَرَّدَ له الصوفيةُ في كُتُبِهم، وإِسْتَوْفَوْا الكلامَ عليهِ بِما لا تَجِده عِند غيرهم. وما سِوى هذا فهُوَ غيرُ نافِعٍ ولا مفِيدٍ، كما يَشهَدُ لذلك الواقِعُ ويُؤيّدُه. لأن العلماءَ بالعلومِ الظاهرةِ عِلْمُهُم قاصِرٌ على اللِّسانِ لا غَير، وأمَّا قُلوبُهُم فهِيَ فارغةٌ خاويةٌ مِنْ كُلِّ خيرٍ، يقولون مَا لا يَفعلون، ويَفْعَلونَ ما يُنْكِرون، فَلِذلك كان حُجَّةَ اللهِ تعالى عليهم كما في الحديث المتقدِّم.

كُن عظيم الحِلم..

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**عَظيمَ الحِلْمِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك يُحبُّكَ اللهُ تعالى ورسولُه صلى الله عليه وآله وسلم، كما في الصحيح أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لِأَ شَجِّ عَبْدِ القَيْسِ: « **إنَّ فِيكَ خصْلتَيْنِ يُحِبُّهما اللهُ ورسولُه: الحِلمُ، والأَنَاةُ** ».

وروَى الأصْبَهاني في ''الترغيب'' عن عائشةَ قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « **وَجَبَتْ محبَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ على مَنْ أُغْضِبَ فَحَلِمَ** ».

كُنْ واسِعَ الصَّدر..

ثم قال شيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**واسِعَ الصَّدْرِ**)؛ **قُلتُ**: يعني لا يَضيقُ صدرُكَ بِما تَرَى أو تَسمعُ مِمَّا تَكرهُه ويَسُوؤُكَ في نفسِك. فإنَّ ذلك مُجانِبٌ لِلصبرِ الذي ينبغي أنْ يكونَ عليه المريدُ، اِتّباعاً لِرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وتَخلُّقاً بأخلاقِه الكريمةِ. فقد كان يقابلُ إذايةَ الأعرابِ والجَهلةِ مِنَ المشركين بِسِعَةِ صدْرٍ عظيمةٍ، ولا يَردُّ على أحدٍ بِمِثلِ ما ظهَرَ مِنه مِنْ أذىً، لأنَّ خُلُقَه القرآنُ. وقد أمره اللهُ تعالى في القرآن بالإعراضِ عن الجاهِلين، وأمَرَهُ بالصبرِ، وقال له:﴿ **واصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرون** ﴾.

فيَجِبُ عليك أيُّها المريدُ إنْ أردتَ الوصولَ، بالاقتداءِ بالرسولِ صلواتُ اللهِ تعالى عليه وآله وسلامُه.

وليَكُنْ ضحِكُك تبسُّماً..

ثم قال الشيخ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وَلْيَكُنْ ضَحِكُكَ تَبَسُّمًا**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تَكونُ مُحمَّديًّا سالِكاً السنَّةَ الكريمةَ. فإنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان على أكملِ الأحوال وأجملِ الصِّفاتِ، لم يَكنْ ضحِكُه إلا تَبسُّمًا، كما قال جابِرُ بنُ سَمُرَةَ فيما

رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، عنه: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لا يَضحكُ إلّا تَبسُّمًا** ».

وروَى أحمدُ عن أبِي الدَّرداءِ قال: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لَا يُحدِّثُ إلّا تَبسُّمًا** ». ولم يَكُنْ يظْهرُ عند ضحِكِه صلى الله عليه وآله وسلم نَواجِذه الشريفة كما هي عادةُ الناسِ في ذلك، إلّا في بعضِ المرَّاتِ.

وسائرُ ضحِكِه لم يكن إلّا تَبسُّماً، لأنَّ ذلك مِنْ كمالِ المروءَةِ، ودلالةً علَى الخشيةِ وإشتغالِ الفِكرِ بالتدبر، والقلبِ بالتَّفكرِ، ولهذا ورَدَ في ذَمِّ كثرةِ الضحكِ والقَهْقَهةِ أحاديثُ كثيرةٌ.

وروَى اِبنُ حِبّان في ''صحيحه''، عن أَبِي ذَرٍّ رضي الله تعالى عنه قال: قُلتُ: يا رسولَ الله، فَما كانت صُحُفُ مُوسَى عليه الصلاة والسلام ؟ قال: « **كانت عِبَراً كُلها: عجِبْتُ لِمَنْ أيْقَنَ بالموتِ ثم هو يَفْرح !! عجِبْتُ لِمنْ أيْقَنَ بالنار ثم هو يَضحَك !!** ».

وليكن استفهامك تعلماً..

ثم قال شيخنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**واِستِفهامُكَ تعَلُّماً**)؛ **قُلتُ**: لأَنَّ الاستفهامَ لِغيرِ التعلمِ والاستفادةِ مِنَ التعنُّتِ، والتعجيزِ، والمباهاةِ، والمكاثَرَةِ، والممَاراةِ الواردِ فِيها الوعيدُ الشديد. كما روَى الترمذي في ''سننه'' عن كَعْبِ بنِ مالِكٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُجارِي بِه العُلماءَ، أو لِيُماري بِهِ السفهاءَ، أو يَصْرِفَ بِه وُجوهَ الناسِ إلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ** ».

وروَى الخَطيبُ في ''اِقتضاء العِلْم العَمَل'' عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُماري بِهِ السُّفهاءَ، أو يُكاثِر بِه العُلماءَ، أو يَصرِف وُجوهَ الناسِ إلَيهِ فَليتَبَوَّأْ مقْعَدَهُ مِنَ النّارِ** ». وروَى الدَّيلمِي عن عليٍّ مرفوعاً: « **إذا قَعَدَ الرَّجُلُ إلَى أخِيهِ فَلْيَسْأَلْهُ تفَقُّهًا، ولا يَسْأَلْه تعَنُّتاً** ».

ولأنَّ السؤالَ والاستفهامَ لِغيرِ التَّعلُّمِ يَكونُ سببًا لِلجدال والخِصام والنزاع، وهو مَذمومٌ أيضاً، قبيحٌ يَدعو إلى التَّقاطعِ والتخاصم، ولذلك حرَّمه اللهُ تعالى ورسولُه.

الأمر بالنصيحة للغافلين

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**ناصحاً لِلغافِلِ**)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي لِلمريدِ أنْ يكونَ ناصحًا لأهلِ الغَفلةِ عن ربِّهم، الواقعِينَ في ظُلماتِ الهَوَى، المعْرِضِينَ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى، فيُعَرِّفهم بِفسادِ حالِهم وخُروجِهم عن الصِّراطِ المستقيمِ الذي خُلِقُوا لأجلِ السَّيرِ عليه والتَّمسكِ بِه.

وينبغي أَنْ يكونَ هذا منه بِتَلطُّفٍ في الخِطابِ، ولِينٍ في الكلام حتَّى يكون لِنصيحتِه في قُلوبِهم قَبولٌ، ولِنفوسِهم علَى كلامِه إقْبالٌ، كما أمرَ اللهُ تعالى بذلك بِقولِه: ﴿ **ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ** ﴾، وقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: « **إذا كُنْتَ آمِرًا بِالمعْرُوفِ فَلْيَكُنْ أَمْرُكَ بِذَلِكَ بِالمَعْرُوفِ** ».

واِعْلَمْ أَنَّ النصيحةَ لِلمسلمِينَ مِنْ أهَمِّ شعائِرِ الإسلامِ وأعظَمِ أركانِ الدِّينِ، كما في ''صحيح مُسلِم'' عن تَمِيمٍ الدَّارِي قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **الدِّينُ النصيحَةُ، ثلاثاً. قُلْنا: لِمَنْ يا رسولَ اللهِ ؟ قال: للهِ ولِكِتابِه، ورَسولِه، ولِأَئِمَّةِ المُسلمينَ وعامَّتِهِم** ».

وروَى أحمدُ عن أَبِي أُمامَةَ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: « **أَحَبُّ ما تَعَبَّدَنِي بِه عَبدِي النُّصحَ لِي** ».

(**قُلتُ**): وقَدْ أقْفَلَ الناسُ هذا البابَ وتَركوهُ ونَسُوه، لا سيما أهل العِلم منهم، فتَركُوا النصيحةَ لِلناسِ في دِينِهم. وبذلك اِنْتَشرَ الجهلُ وعَمَّ الفسادُ، وظهر المنكرُ بين الصغيرِ والكبيرِ، والرَّجلِ والمرأةِ. والأمرُ للهِ وحده.

الأمر بتعليم الجاهلين

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**مُعَلِّماً لِلجاهِلِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تكونُ أيُّها المريدُ وارثاً محمديًّا على الحقيقةِ، قائِماً بِحقِّ الوِراثةِ النبويَّةِ. فإنَّ الأنبياءَ لَم يُوَرِّثُوا ديناراً ولا درهماً، وإنَّما ورَّثُوا العِلمَ، كما قال رسولُ اللهِ صلى اللهِ عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه أحمدُ،

والأربعةُ، وابنُ حِبَّان.

فالقائِمُ بتعليم الجاهلِ ما يَنْفعُه في دِينِه ويُعَرِّفُه بِالحلال والحرامِ، قائِمٌ بوظيفةِ الوِراثةِ المحمديةِ. ولذلك أخذ اللهُ تعالى الميثاقَ على أهلِ العِلمِ أَنْ يُبَلِّغُوا ما عِندهُم مِنَ العِلْمِ، كما أخذ الميثاقَ على الأنبياءِ بِتَبليغِ شريعتِه ووَحْيِه، كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **ما أتَى اللهُ تعالَى عالِماً عِلْماً إِلَّا وأخَذَ عَلَيْهِ مِنَ المِيثَاقِ مَا أخَذَ علَى النَّبِيِّينَ أَنْ يُبَيِّنُوهُ ولا يَكْتُمُوه** ». رواه أَبُو نُعَيمٍ في ''كتاب فَضْل العالِمِ العَفِيفِ علَى الجاهِلِ الشَّرِيف''، مِنْ حديثِ اِبنِ مسعودٍ.

ولهذا سمَّى النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم المبلِّغِينَ عنه حديثَهُ والمعلِّمينَ لِلناسِ شريعَتَه، خُلَفاءَه وخُلفاءَ الأنبياءِ قَبْلَه؛ كما روَى الطبراني في «الأوسط» عن اِبنِ عباسٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **اللهُمَّ اِرْحَمْ خُلَفائِي. قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، وَمَنْ خُلَفاؤُكَ ؟ قال: الذين يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يَرْوُونَ أحادِيثِي، ويُعلِّمُونَها الناسَ** ». ورواه الخطيبُ في « شَرَف أصحابِ الحَديثِ »، مِنْ حديثِ عليٍّ عليه السلام بِلفْظ: « **أَلَا أَدُلُّكُمْ علَى آيَةِ الخُلَفاءِ مِنِّي ومِنْ أصحابِي ومِنَ الأنبياءِ قَبْلِي: هُمْ حَمَلَةُ القرآنِ والأحاديثِ عنِّي وعَنْهم في اللهِ عَزَّ وجلَّ** ».

عدم مقابلة الإذاية بمثلها

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وَلَا تُؤْذِ مَنْ يُؤْذِيكَ**)؛ **قُلتُ**: لِتَكون بذلك مِنْ أهلِ العَزْمِ في الأمرِ، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ** ﴾.

وهكذا كان خُلُقُ مولانا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، لا يُقابِلُ الأذَى إِلَّا بالعَفْوِ والصَّفحِ والتجاوز، كما ورَدَ في صِفةِ أخلاقه المتواترة صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا يكون الرجلُ حليماً حتى يقابِلَ الإذايةَ بالعَفوِ وعدَمِ الجزاءِ عليها بالمِثْلِ، لأنَّ الحِلمَ أجملُ ما يكون مِنَ المقْتَدِرِ علَى الانتِقامِ مِنَ المسيءِ. ولهذا كان الفضلُ والكَرمُ والعِزَّةُ في الإحسان إِلَى مَنْ أساءَ إِلَيكَ وأذَاكَ؛ كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **اِبْتغُوا الرِّفْعةَ عِنْدَ اللهِ تعالَى: تَحْلُمُ عَمَّنْ جَهَلَ علَيْكَ، وتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ** » رواه اِبنُ عَدِيٍّ عن اِبنِ عُمَرَ. واللهُ تعالى إنما أثْنَى علَى الكاظِمينَ الغَيظ والعافِينَ عن الناس، وأخْبَرَ أنَّهُم مِنْ أهلِ البِرّ الذين لَهُم الجَنَّة.

وانْظُرِ الأصلَ فقدْ تكلَّمتُ على هذا الموضوع بما فيه فائدة عظيمة في عدَمِ مقابلَةِ الإذايةِ بمِثْلها، وعدمِ الانتصارِ لِلنَّفس الذي حرَّمه أهلُ الطريق بِإجماعٍ مِنْهم. ففِي طريقِهم أَنَّ مَنِ انْتَصر لِنفسِه لَا يَجِيءُ مِنهُ شَيءٌ.

تَرْكُ ما لا يعْني

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(وَلا تَدْخُلْ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ)**؛ **قُلتُ:** لِأَنَّ مِنْ حُسنِ إسلامِ المَرءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيهِ. فالواجب علَى مَنْ أراد سلامةَ دِينِه وكَمالَ إيمانِه، أَنْ يتركَ الخوضَ فِيما لا يعْنِي مِنَ العَملِ والقولِ، ويُقْبِلَ علَى شأنِه، وما يَعْنِيهِ ويَنْفعُه عند الله تعالى.

كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الترمذي، وابنُ ماجه، عن أَبِي هريرةَ: « **مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُه مَا لا يَعْنِيه** ». وروَى الترمذي وحسَّنَه عن أَنَسٍ رضي الله تعالى عنه قال: تُوُفِّيَ رجلٌ، فقال رجلٌ آخرُ ورسولُ اللهِ يَسْمَعُ: أَبْشِرْ بِالجنَّةِ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **أَوَ لا تَدرِي فَلعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لا يعْنِيهِ، أو بَخِلَ بِما لا يَنْقُصُه** ».

ترك الشماتة بالمصيبة

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا بِعلُومِه: **(وَلا تَشْمَتْ بِمُصِيبَةٍ)**؛ **قُلتُ:** لِأَنَّ الشماتةَ بالمصائب لا تكون إِلَّا مِنَ العَدُوِّ لِعَدوِّه. والمؤمنُ أخُو المؤمِنِ. فلا ينبغي له أنْ يَشمَتَ به في مصيبةٍ نزلَتْ بِه، بل يجب عليه أنْ يكونَ مُعِيناً له في رفْعِ المصيبة عنه، عاملاً في دفْعِ المكروهِ عنه، مُوَاسِياً له فيما نَزلَ به.

فهذه هي الأخلاقُ التي يَجِب على المريدِ أنْ يَتخلَّقَ بها، فإنَّها مِنْ تَمامِ مَقامِ الإحسانِ.

ولهذا نَهَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فيما رواه الترمذي وحسَّنَه، عن واثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **لا تُظْهِرِ الشَّماتَةَ لِأَخِيكَ فَيُعافِيهِ اللهُ ويَبْتَلِيكَ** ».

حفظ اللسان من الغيبة

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وَلَا تُلَوِّثْ لِسانَكَ بِغَيْبَةٍ**)؛ **قُلتُ**: لِأَنَّ الغيبةَ مِنْ كبائر الذنوب وأقْبحِ المعاصي، وهي بمثابة مَنْ يَأكلُ لحمَ أخيه ميّتًا؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوه** ﴾.

وروَى أبو يَعْلَى، والطبراني، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ أكَلَ لحْمَ أخِيهِ فِي الدنيا قُرِّبَ إِلَيْهِ يَوْمَ القيامةِ، فَيُقال له: كُلْهُ ميّتاً كما أكَلْتَهُ حيًّا، ويَكْلَحُ، ويضِجُّ** ».

والزّنا مِنَ الكبائر والقبائح التي اِتَّفقَتِ الشرائعُ السماويةُ على تحريمِها والتَّنفِيرِ منها، ومع ذلك أخبر النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أَنَّ التوبةَ مِنَ الغيبة أشدُّ مِنَ التوبة مِنَ الزِّنا. وكذلك الرِّبا مِنْ أكبر الكبائر وأقبح المعاصي، وتوعَّدَ اللهُ تعالى عليه بالمحاربة والعياذُ بالله تعالى، ومع ذلك أخبرَ صلى الله عليه وآله وسلم **أَنَّ أرْبَى الرِّبا اِستِطالةُ المَرءِ في عِرْضِ أخِيهِ**. وقد بينتُ هذا بأسانيده في الأصلِ.

والغيبةُ مِنَ المعاصي التي توجِبُ عذابَ القبرِ كما ورَدَ في الصحيح، فَيَجِبُ الاحتراسُ مِنْ هذه الكبيرة التي جَمعَتْ أنواعاً مِنَ العقوباتِ والعياذُ بالله تعالى. وقد تهاون الناسُ بها اليوم، بل اِستَحَلُّوها واستباحوها، والأمرُ للهِ.

كن صادق القول

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا بعلومِه: (**صادِقَ القَوْلِ**)؛ **قُلتُ**: يعني يَجبُ على المريدِ ملازَمةُ الصِّدقِ في القولِ، وتجنُّبُ الكذبِ والأخبارِ بِما لا حقيقةَ له، وبِذلك يُكْتَبُ عند الله صِدِّيقاً؛ كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: « **لا يَزالُ الرَّجلُ يَصْدُقُ ويتَحَرَّى الصِّدْقَ حتَّى يُكْتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقاً** ».

وهذا فضلٌ عظيمٌ ومقامٌ كريمٌ ينالُه الصادقُ في قولِه، وهو الصِّدِّيقِيَّةُ التي هي مِنْ أرفعِ المقامات بعد النبوةِ. فلهذا أوصَى به الشيخُ رضي الله تعالى عنه في هذه الوصية الجامعة لِمَا يَنْفعُ المريدَ الصادقَ في سلوكِه.

ورَوَى هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ عن مجمعِ بن يَحْيَى قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **تَحَرَّوْا الصِّدْقَ وإِنْ رأيْتُمْ فِيهِ الهَلَكَةَ، فإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ. واجْتنِبُوا الكذبَ وإِنْ رأيتُم فِيهِ النَّجاةَ، فإِنَّ فِيه الهَلَكَة** ». ورَوَى اِبنُ لَالٍ عن أنسٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **يا عَلِيُّ، لا تَكذِبْ وعليكَ بِالصِّدقِ، فإِنْ ضَرَّكَ فِي العاجِلِ كان فَرَجاً في الآجِلِ** ».

التبرؤ من الحول والقوة

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**بَارِئًا مِنَ الجَهْدِ والحَوْلِ**)؛ **قُلتُ**: لِأَنَّ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والجهْدِ الذي هو القوةُ، كنزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّة. كما روَى البخاري ومسلم، عن أبِي مُوسَى الأَشْعري رضي الله عنه، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: « **قُلْ: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فإِنَّها كنزٌ مِنْ كُنوزِ الجَنَّةِ** ».

(**قُلتُ**): وإنما كانت لا حول ولا قوة إلا بالله كنزاً مِنْ كنوزِ الجَنَّةِ، لأَنَّ التَّبَرِّي مِنَ الحَوْلِ والقوةِ فيه راحةٌ لِلقلبِ مِنْ معالجةِ ما يَهُمُّ مِنَ الغُمومِ والهُمومِ، وسكينةٌ للنفس وطمأنينةٌ لها عند نُزولِ الكُروبِ وما يُزعِجُ ويُقْلِقُ. لِأَنَّ مَنْ تَبرَّأَ مِنْ حَولِه وقُوَّته عند كُلِّ نازلةٍ تَنزلُ به إِلَى حَوْلِ اللهِ تَعالى وقُوَّتِه، فقد اِستراح ووَضَعَ الأمرَ في يدِ المدَبِّرِ صاحِبِ الحَوْلِ والقُوَّةِ، وأزالَ عن نفسِهِ هَمَّ الدَّفْعِ والرَّفْعِ.

وبذلك يكون قد دخل في حالٍ مِنْ أحوالِ أهلِ الجَنَّةِ وهو الراحةُ وعدمُ الوقوعِ في الغمِّ والهَمِّ؛ فلِهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم: « **لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ كَنزٌ مِنْ كُنوزِ الجنَّةِ** ». بِخِلافِ مَنْ يدَّعِي الحَوْلَ والقوةَ لِنفسِهِ، فإِنَّه دائمًا في هَمٍّ وغمٍّ وقلقٍ مِنْ جهةِ التدبيرِ في الجَلْبِ والدفعِ.

تجنُّبُ الشبهات

ثم قال شيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**واقِفاً عِندَ الشُّبُهاتِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تكونُ قد اِستَبْرَأْتَ لِدينِكَ وعِرْضِكَ، واتَّقَيْتَ الوقوعَ في المحرَّماتِ، كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه البخاري ومسلم، عن النُّعْمانِ بن بَشِيرٍ: « **إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ والحَرامَ بيِّنٌ، وبَيْنَهُما أُمورٌ مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كثيرٌ مِنَ الناسِ. فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدِ اِسْتَبْرَأَ**

لِدينِهِ وعِرْضِهِ، ومَنْ وقَعَ في الشُّبهاتِ وقَعَ في الحَرامِ، كالرَّاعِي يَرْعَى حوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ. أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً، وَإِنَّ حِمَى اللهِ تعالى محارِمُه ».

فأفادَ الحديثُ أَنَّ مَنِ اِتَّقَى الشبهاتِ فقد طلَبَ البراءةَ لِدِينِهِ وعِرْضِه مِنَ النَّقصِ والشَّيْنِ. يعني حصَّنَ دِينَه مِنَ النَّقصِ بِتورُّعِه عن الشبهات التي قد تَكونُ مِنَ الحَرامِ وهو لا يَعْلَمُها. وحصَّنَ عِرْضَهُ مِنَ الطَّعْنِ والقَدْحِ الداخِلِ علَى مَنْ لا يَجْتَنِبُها، لأنَّ ذلك يَدلُّ على تَهَوُّرِهِ وطَيْشِه.

ومَنْ فعَلَ ذلك فقد عرَّضَ نفسَه لِلقَدحِ فيه والطعن، كما قال عمرُ رضي الله تعالى عنه: " مَنْ عرَّضَ نَفسَه لِلتُّهَمِ فَلا يَلُومَنَّ مَنْ أساءَ بِهِ الظَّنَّ ".

فالواجبُ على المسلِمِ الوقوفُ عند الشبهات، والبُعدُ عمَّا لا يَعلَمُ أمْرَهُ، أَمِنَ الحَلالِ هو أَمِنَ الحَرامِ ؟؟

وروَى الترمذي، وابنُ ماجه، عن عَبدِ اللهِ بنِ يَزيدٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **لا يَبلُغُ عَبدٌ أَنْ يَكونَ مِنَ المتَّقِينَ حتَّى يَدَعَ ما لا بَأْسَ بِهِ حَذَراً مِمَّا بِهِ بأْسٌ** ». وروَى الطبراني عن واثِلَةَ مرفوعاً: « **الورَعُ الذي يَقِفُ عِنْدَ الشُّبهات** ».

العطف على اليتيم

ثم قال شيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (أباً لِليَتيمِ)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي أنْ تكون أيُّها السَّالِكُ لِطريقِ الآخرةِ الراغبُ في المنازِلِ العُلَى في الجنَّة لِلصبِيِّ الذي فَقَدَ أباه ولَمْ يَبلُغْ الحُلُمَ مِثْلَ أبِيهِ في العطف عليه والحُنُوِّ والرأفةِ، والسعيِ في مصلحتِه، والقيامِ بِما يحتاجه مِنْ أمورِ معيشتِه، وضَمِّهِ إلى مائدتِكَ لِيَأكُلَ مِمَّا تَأكلُ، فإنَّ في ذلك مِنَ الأجرِ والثوابِ ما لا يُقدرُ قَدْرُه ولا يُعْرف كُنْهَه وفَضْلَه.

ويكفي في ذلك قولُه صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: « **أنا وكافِلُ اليتيمِ كَهاتَيْنِ في الجَنَّةِ، وأشارَ بالسبَّابةِ والوُسطَى** ». فعَملٌ يوجِبُ لِصاحبِه أَنْ يكونَ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنَّةِ بهذه المكانة وهذه الرتبة، يجِبُ علَى المرءِ الحِرصُ على القيام به كل الحِرصِ، ويجتهد في التخلق به كل الاجتهاد.

ولعظيمِ رتبة هذا العمل في التقرب إلى الله تعالى، أمَرَ اللهُ تعالى به سيِّدَ أنبيائِه في سورة الضُّحى بِقولِه: ﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ** ﴾، أيْ: لا تُذِلَّهُ وتَنْهَره وتُهِينه، ولكِنْ أحْسِنْ إليه وتلَطَّفْ به. وهكذا كان خُلُقُه صلوات الله تعالى وسلامه عليه مع اليتامَى.

وقال قَتادةُ: " أوْحَى اللهُ تعالى إلَى داوُدَ عليه السلام: كُنْ لِليتِيمِ كالأَبِ الرَّحِيم".

وروَى الطبراني عن أَبِي الدَّرداءِ قال: « **أتَى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم رجلٌ يَشْكُو قَسْوةَ قَلْبِه. قال: أتُحِبُّ أنْ يَلِينَ قَلبُكَ وتُدْرِكَ حاجَتَكَ ؟ اِرْحَمِ اليتيمَ، وامْسَحْ رأسَهُ، وأَطْعِمْهُ مِنْ طعامِكَ، يَلِنْ قلبُكَ وتُدْرِكْ حاجَتَكَ** ».

وليكن بشراك في وجهك وحزنك في قلبك

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**بُشْرَاكَ في وجْهِكَ**)؛ **قُلتُ**: لأنَّ ذلك كان خُلق رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أمرَنا اللهُ تعالى بالاقتداء به والتخلقِ بأخلاقه الكريمة. روَى البزارُ بسندٍ حسنٍ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: « **كانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم إذا أتاهُ الوحْيُ أَوْ وَعَظَ قُلْت نذير قومٍ أتاهُم العذابُ. فإذا ذهَبَ عنه ذلك، رأيتَ أطْلَقَ الناسِ وجْهًا وأَكْثرَهُم ضحِكاً وأحْسَنَهم بِشْراً** ». وروَى أبُو الشَّيخِ في "أخلاق النبيّ" عن عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ قال: « **ما رأيتُ أحداً أكْثَرَ تَبسُّماً مِنْ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم** ». وقالت عائشةُ: « **كان أبَرَّ الناسِ، ضحَّاكاً بَسَّاماً** »، رواه أبو الشيخ في « أخلاق النبيّ «. فينبغي الاقتداءُ به صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الخُلق الجميل.

وروَى الطبراني في « مكارم الأخلاق « عن أبي هريرة مرفوعاً: « **إنَّكُم لا تَسَعُونَ الناسَ بِأمْوالِكُمْ، ولكِنْ لِيَسَعْهُمْ مِنكُمْ بَسْطُ الوجْهِ** ». وكما يَحسُنُ أنْ يكونَ الوَجهُ منبسِطاً تَعْلوه البُشرَى والتَّبسُّمُ، كذلك يَحْسن بالقلب أنْ يكونَ حَزيناً، ولذلك قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا بعلومه: (**وَحُزْنُكَ في قَلْبِك**)؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ القلبَ الحَزينَ كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه الطبراني، والبزار، بسندٍ حسنٍ، عن أَبِي الدَّرْدَاءِ: « **إنَّ اللهَ يُحِبُّ كُلَّ قَلْبٍ حَزينٍ** ».

قُلتُ: وإنما يحب الله تعالى القلبَ الحزينَ لأنَّ ذلك علامةَ خُضوعِه وخُشوعِه، واشتغالِه بالتفكرِ في المصيرِ والزوالِ، وما ينتظرُ العَبدَ عِندَ المآلِ مِنْ حِسابٍ وعذابٍ؛ كما روَى الطبراني بسندٍ حسنٍ عن اِبنِ عباس قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **عَلَيْكُمْ بِالحُزنِ فإِنَّهُ مِفْتاحُ القَلبِ** ».

ولِهذا كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم مُتواصِلَ الأحزانِ، كما جاء في وصْفِ هِنْدِ بنِ أبِي هالَةَ لِحِلْيَةِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فيما رواه اِبنُ سعدٍ في «الطبقات» عنه قال: « **كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم متواصلَ الأحزانِ** ».

لأنَّ الحزنَ يَقْبِضُ القلبَ عن التفرق في أودية الغَفلةِ، ويَجْمَعه علَى الفِكرة وتوحيدِ الهِمَّةِ. ولِهذا قال هِنْدُ بنُ أَبِي هالَةَ في بقِيَّةِ وصْفِهِ: « **كان مُتواصِلَ الأحزانِ دائِمَ الفِكْرَةِ** ».

وليس كذلك القلبُ الفَرِحُ، فإِنَّ ذلك يَدلُّ على أَنَّ صاحِبَه فارِغُ البالِ عن مَعادِهِ، مغرورٌ بما يَشْغلُه عن ربِّه تعالى، بعِيدٌ كُل البعدِ عمَّا يُقَرِّبُه إلى اللهِ تعالى؛ ولِهذا ورَدَ ذَمُّ الفَرَحِ في القرآن والسنَّةِ، كما بيَّنتُ ذلك في الأصل.

وقد قالوا: القَبضُ يَجْمَعُكَ علَى اللهِ تعالى، والبَسطُ يَجمعكَ علَى نفسِكَ. ومِنْ هُنا تَعلمُ الفضلَ الموجودَ في الحُزْنِ.

قال الشيخ الأكبرُ رضي الله تعالى عنه في «مواقِع النجوم»: "الحُزنُ جَماعُ الخَيرِ كلِّه، إذا أَحَبَّ اللهُ تعالى عَبداً أَلْقَى نائِحَتَهُ في قَلْبِه، مَنْ لم يَذُقْ طَعْمَ الحُزنِ لَمْ يَذق طعْمَ العبادةِ على أنواعِها".

إشْغال الفِكر بالآخرة

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**مشغُولاً بِفِكْرِكَ**)؛ **قُلتُ**: كما كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فيما وصفَهُ به هِنْدُ بنُ أَبِي هالَةَ: « **دائِم الفِكْرةِ لَيْسَتْ لَه راحةٌ** »، رواه اِبنُ سعْدٍ في "الطبقات".

فأفضلُ أحوالِ العبدِ أنْ يكون على الحال التي كان عليها رسولُ الله صلى الله عليه وآله

وسلم.

فينبغي للعاقل أنْ يكون فِكرُه مشغولاً بأمورِ آخرتِه، وما يَنالُ به سعادتَه عند ربِّه وما يُقَرِّبُه مِنْ رِضاه. ومِمَّا يُعِينُ على ذلك: الفِكرُ في زوالِ الدنيا وفَنائِها، وانقطاعِ سُرُورِها ولَذَّاتِها، وفي الآخرةِ وبقائِها، ودوَامِ نعِيمِها وعِقابِها. فبذلك ينْقَدِحُ زِنادُ العملِ وينبعِثُ الحِرصُ علَى الجِدِّ والاجتهادِ في العمل على الفوز بالجنَّةِ والنجاةِ مِنَ النارِ؛ وفي هذا ورَدَ: « **فِكرةُ ساعةٍ خَيرٌ مِنْ عِبادَةِ سنَةٍ** ».

وفي هذا أيضاً كان فِكرُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، كما روَى أبو الشيخ في ''أخلاق النبيّ'' عن عليّ عليه السلام في حديثٍ ذَكَرَ فيه كيف كان سكوتُ رسولِ الله صلى الله عليه وآلم وسلم قال: « **وأَمَّا تَفكِيرُهُ فَفِيمَا يبْقَى ولا يفْنَى** ».

حفظ الأسرار

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**لا تُفْشِ سِرًّا**)؛ **قُلتُ**: لأَنَّ إفشاءَ السرِّ مُنافٍ لِلأمانةِ التي هي مِنَ الإيمان، ومَنْ لا أمانةَ له فلا إيمانَ لَه، كما ورَدَ في الحديث مِنْ طرقٍ متعددةٍ. ولهذا يَحْرُمُ إفشاءُ سِرِّ المسلمِ كما يَحْرُمُ اِغْتِيابُه وبَهْتُهُ ونمِيمَتُه، وسائرُ ما لا يُبيحُه مِنْ أمورِه، كما قال المرْداوي في ''منظومة الآداب'':

ويَحْرُمُ بُهْتٌ واغْتِيابٌ نَمِيمَةٌ ... وإِفْشاءُ سِرٍّ ثُمَّ لَعْنٌ مُقَيَّدِ

وروَى أبو بكرٍ اِبنُ لَالٍ في ''مكارم الأخلاق'' عن اِبنِ مسعودٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **يَتَجالَسُ المُتَجالِسانِ بِالأمانَةِ، لَا يَحِلُّ لِأَحَدِهِما أَنْ يُفْشِيَ عن صاحِبِه ما يَكْرَهُ** ».

وهذا وإنْ كان ضعيفَ السندِ لكِنْ له طرقٌ وشواهدُ تُكْسِبُه قوةً وتَرفعُه إلى درجة الحَسَنِ، كما بيَّنتُ في الأصل.

(**تنبيه**): لا يَحْرُمُ إفشاءُ سِرٍّ يترتَّبُ عليه مَفْسدَةٌ وحَذرٌ، وضياعُ لِحَقٍّ، كما روَى أبو داود بسندٍ حَسنٍ، عن جابرٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **المَجالِسُ بالأمانَةِ إِلَّا ثلاثة مجالِس: سفْكُ دمٍ حرامٍ، أو فرْجٌ حرامٌ، أو اِقتطاعُ مالٍ بِغَيرِ حَقٍّ** ».

وكذلك لا يَحْرُمُ إفشاءُ السِّرِّ الذي يُعْلَمُ بِقرينةٍ أَنَّ صاحِبَه لا يَكْرَهُ إفْشاؤُهُ، ولم يُوصِ بِكِتمانِه. ولكنَّ الأَوْلَى في هذه الحال عدمُ الإفشاءِ، لأَنَّ ذلك مِنْ مكارم الأخلاق ومحاسِنِها. وقد قالوا: صُدورُ الأحرارِ قُبورُ الأسْرار.

ستر العيوب

ثم قال شيخنا وإمامنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: **(ولا تَهْتِكْ سِتْراً)**؛ **قلتُ:** لأَنَّ سِترَ العيوبِ والتجاهلَ والتغافلَ عنها شِيمةُ أهلِ الدِّينِ وصِفَةُ المؤمنين المتَّقِين، المتخلِّقِين بالصفات الرَّحمانيَّةِ التي أذِنَ اللهُ تعالى لِعِبادِهِ في العمل على التخلقِ بها والتقربِ إليه بها؛ واللهُ ستَّارٌ يَستُرُ القبيحَ، ويتجاوزُ ويعفُو عنِ المسيءِ ويغفِرُ، ويستُرُ عَبدَهُ في الدنيا والآخرة. فلِذلك يُحبُّ مَنْ يَسترُ عِبادَه ولا يهْتِكُ لهم سِتراً، ولا يَكشِفُ لهم أمراً. وجعل جزاءَ ذلك السِّترَ في الدنيا والآخرة جزاءً وِفاقاً.

كما روَى مسلمٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **لَا يَستُرُ عَبْدٌ عَبداً في الدنيا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ تَعالى يَوْمَ القِيامةِ** ». وروَى مسلمٌ أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ ستَرَ علَى مُسْلِمٍ ستَرَهُ اللهُ تعَالى في الدُّنْيا والآخِرَة** ».

القيام بحق الربوبية

ثم قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: **(كَثيرَ العِبادَةِ)**؛ **قُلتُ:** يعني ينبغي لِلمريدِ السَّالِكِ أنْ يكونَ كثيرَ الاشتغالِ بِعِبادةِ ربِّه، مُقْبِلاً على ما يَنفعُه عِنده، مجاهِداً نفسَه وهَواه في التفرغِ لِلقيام بِحقِّ الربوبية. وبذلك ينال ما نَاله المهتدُون ويَهْديه اللهُ تعالى سُبلَ المقَرَّبين، ويجعله مع الذين بلغوا مقامَ الإحسانِ الذي هو أسنَى المقاماتِ في المعرفةِ باللهِ تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَالذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِين** ﴾.

لأَنَّ العبدَ إذا أَكْثرَ مِنَ التقربِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بِفِعلِ الطاعاتِ ونوافِلِ القُرُباتِ، أَحَبَّه اللهُ تعالى، وإذا أَحَبَّهُ كان سمْعَه وبصَرَهُ، ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بِها، ورِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وفُؤادَهُ الذي يَعْقِلُ بهِ؛ كما ورَدَ في الحديث الصحيح.

وهذا المقام لا يُدْرَكُ ولا يَصِلُ إليه العَبدُ إلَّا بكثرةِ العِبادةِ والمجاهَدَةِ، والإقبالِ علَى ذلك. قال القُشَيري في ''رسالتِه'': '' واعْلَم أنَّ مَنْ لَم يَكُن في بِدايَتِه صاحِبَ مجاهَدَةٍ، لَمْ يَجِدْ مِنْ هذه الطريقةِ شَمَّةً ''.

الاشتغال بطلب الزيادة في الخير

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**طالِباً دائماً لِلزيادةِ**)؛ **قُلتُ**: لأنَّ مَنْ لم يَكُن في الزيادة فهُو في النقصان، ومَنْ كان في النقصان فهُو في خُسرانٍ. فلِهذا ينبغِي طلَبُ الزيادة علَى الدوام لِلنَّفحاتِ الرَّحمانيَّةِ والمِنَحِ الرَّبانيَّةِ.

وقد قال الأئمَّةُ مِنْ أهلِ الطريقِ: مَنْ أَقْبَلَ علَى اللهِ تَعالى أَلْفَ عامٍ ثُمَّ أَعْرَضَ لَحظَةً، لَكانَ ما فاتَه في تِلك اللحظةِ أعْظَم مِمَّا أدْرَكَ. لأَنَّ التجلِّيَاتِ الإلهِيَّةِ في تَجَدُّدٍ دائمٍ وتَنوُّعٍ مُستمِرٍّ، فما يَقعُ به التَّجلِّي في ساعةٍ لا يَقعُ مِثْلُه في أُخرَى؛ فيَفُوتُ الراغب عن الزيادة المعْرِض عن طلبِها مِنَ الفضلِ والعِلمِ والمعْرفةِ علَى قدْرِ ما فاتَه مِنْ تِلكَ التَّجلِّياتِ.

ولهذا ورَدَ فِيما رواه الدَّيلَمي بسندٍ ضعيفٍ عن علِيٍّ عليه السلام قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: « **مَنِ اِستَوَى يَوْماهُ فهُوَ مغْبُونٌ، ومَنْ كانَ آخِرُ يومَيْهِ شرًّا فهُوَ ملعُونٌ، ومَنْ لم يَكُنْ في الزِّيادةِ فهُوَ في النقصانِ، ومَنْ كان في النُّقصانِ فالمَوْتُ خيرٌ لَه** ».

فأفاد الحديثُ أَنَّ مَن اِستَوَى يَوْماه في العمل فَلَمْ يَزْدَدْ فِي يَوْمِهِ الثانِي الطلبُ في الزيادة والعملُ في التَّقرب فهو مَغْبونٌ، والمغبونُ مَنْ حُرِمَ ما يُنْتَفعُ به، ونقْصُه مِنَ الثمنِ مِنْ غيرِ مُقابِلٍ؛ وكذلك العُمُرُ هو رأْسُ مالِ المسلِمِ، فإذا فاتَه في غيرِ طلَبِ الزيادةِ فِيما يَنْفعُه ويُقَرِّبُه إلَى ربِّهِ فهُوَ مغبونٌ فِيه، محرومٌ مِنْ رِبْحِ رأْسِ مالِهِ.

ولا فائدة في حياةٍ لِلْعبدِ يَنْقص فِيها عَمَلُه ويُحْرَمُ فِيها مِنَ الزيادةِ في الثوابِ، والترقِّي في

مراقِي الكمالِ والفلاحِ، فلهذا قال في الحديث ومَنْ كان في النقصانِ فالموتُ خيرٌ له.

النجاة والسلامة في الصمت

ثم قال الشيخ الإمامُ رضي الله تعالى عنه، ونفعنا بعلومه وأسراره: (**كَثِيرَ الصَّمتِ**)؛ **قُلتُ:** لِتَكونَ مقتدياً بِرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، عاملاً بِهَدْيِهِ وسُنَّتِه. فقَدْ روَى أحمدُ في "المسند"، وأبُو الشيخِ في «أخلاق النبيّ»، عن جابِرِ بن سَمُرَةَ قال: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم طويلَ الصمتِ** ». ولأنَّ النجاةَ والسلامةَ في الصمتِ كما رَوَى الترمذي، وأحمدُ، عن اِبنِ عَمروٍ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ صَمَتَ نَجا** »؛ ولهذا قال في حديثٍ آخر: « **وهَلْ يَكُبُّ الناسَ في النارِ علَى مناخِرِهِمْ إلّا حَصائِدُ أَلْسِنَتِهِم** ».

وفي الصحِيحَيْنِ عن أبي هريرة مرفوعاً: « **مَنْ كان يُؤمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ** ».

تحمل الأذى

ثم قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**تَحْمِلُ أذَى مَنْ جَهِلَ عَلَيكَ**)؛ **قلتُ:** كما كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، كان يُقابِلُ جَهْلَ مَنْ آذاهُ بِالعَفوِ والصَّفحِ، والصبرِ، والتَّحملِ. كما روَى البخاري، ومسلم، عن عائشةَ قالت: « **مَا اِنْتَقَمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِنَفْسِهِ قَطُّ، إلّا أنْ يُنْتَهكَ حُرْمةُ اللهِ تعالَى فيَنتَقِم لِلَّهِ بِها** ».

وروَى اِبنُ سعدٍ في "الطبقات"، عن إسمعِيلَ بنِ عَيَّاشٍ قال: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَصْبَرَ الناسِ علَى أوْزارِ الناسِ** » يعْنِي آذاهُم.

وورَدَ في الصحيح أَنَّ بعضَ الجُفاةِ خاطَبَهُ بِجهلٍ فأَعْرَضَ عنه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم، وقال: « **لَقَدْ أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرَ مِنْ هذا فَصَبَر** ».

وقد أثْنَى اللهُ تعالى في كتابه على الذين إذا خاطبهم الجاهلون بما يَكرهُون ويَسُوؤُهُم قالُوا سلاماً، كما قال تعالى: ﴿ **وَعِبادُ الرَّحمنِ الذِينَ يَمْشُونَ علَى الأرْضِ هَوْناً وإذَا خاطَبَهُمْ الجاهِلُونَ قالوا سَلاماً** ﴾.

ثم أخبر تعالى في آخرِ الآيةِ بجزاءِ أصحاب هذه الأوصاف الجميلة الذين وصفَهُم بِها في هذه الآيةِ بِقولِه: ﴿ **أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ويُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً خالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً** ﴾.

العفو عن الإساءة

ثم قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**عَفُوًّا عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْكَ**)؛ **قُلْتُ**: اِقْتِداءً بِرسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان خُلُقه القُرآن. واللهُ تعالَى يَقول: ﴿ **وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ على اللهِ** ﴾.

فَلا ينبغي لِلراغبِ في الأجرِ أَنْ يَحْرِمَ نفسَهُ مِنَ الأجرِ الذي حَكَمَ اللهُ تعالَى به علَى نفسِهِ تَفَضُّلاً لِمَنْ عَفَا عن سيِّئةِ المسِيءِ وأصلَحَ، لأنه تعالَى عفُوٌّ عن الزَّلاتِ، غفورٌ لِلسَّيِّئاتِ، فيُحِبُّ مِنْ عِبادِه العَفُوَّ الصفُوحَ عمَّن أساءَ إليه، ويَجْزِي علَى ذلك بالأجرِ الكبيرِ والثوابِ الكثيرِ. كما روَى الحاكمُ وصحَّحه، عن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله تعالى عنه أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشْرَفَ لَهُ البُنْيانُ وتُرْفَعَ لَهُ الدَّرَجاتُ، فَلْيَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَهُ ويُعْطِ مَنْ حَرَمَهُ وَيَصِلْ مَنْ قَطَعَه** ».

رحمة الصغير وتوقير الكبير

ثُمَّ قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**تَرْحَمُ الصغِيرَ وتُوَقِّرَ الكَبِيرَ**)؛ **قُلْتُ**: لِأَنَّ ذلك مِنْ مكارم الأخلاق التي جاء بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم ورَغَّبَ فِيها، وأخبرَ أَنَّ الخارجَ عنها ليس مِنَّا. كما روَى الترمذي عن أَنَسٍ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صغِيرَنا ويُوَقِّرْ كَبِيرَنا** ». وروَى العَسْكَرِي في "الأمثال" عن أنَسٍ أَنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قال له: « **يا أَنَسُ، اِرْحَمِ الصغِيرَ ووَقِّرِ الكبيرَ تَكُنْ مِنْ رُفَقائِي** ». وروَى أبُو الشَّيخِ في "أخلاق النبيّ" عن علِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ عليه السلام في وصْفِ مجلِسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال: « **يُوَقِّرُونَ فِيهِ الكَبِيرَ ويَرْحَمونَ الصغيرَ** ». وروَى مسلمٌ عن أَنَسٍ قال: « **كان النبِيُّ أَرْحَمَ الناسِ بِالعِيَالِ** ».

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا بِعلومِه: (**أَمِينًا عَلَى الأمانةِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تَكونُ مؤمِنًا كامِلَ الإيمان، صحيحَ الدِّينِ، تُقْبَلُ صَلاتُكَ وزَكاتُكَ. كما روَى البزّارُ عن عليٍّ عليه السلام قال: « **كُنَّا جُلوساً مع رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم فَطَلَعَ عَلَيْنا رجُلٌ مِنْ أهْلِ العَالِيَةِ فقال: يا رسولَ اللهِ أخْبِرْني بِأَشَدِّ شيْءٍ في هذا الدِّينِ وأَلْيَنِه. فقال: أَلْيَنُهُ: شهادَةُ أَنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ وأَنَّ مُحمداً رسولُ اللهِ، وأَشَدُّهُ يا أخَا العَالِيَةِ: الأمانَةُ، إنَّهُ لا دِينَ لِمَنْ لا أمانَةَ لَهُ ولَا صلاةَ ولا زَكاةَ لهُ** ». ورَوَى أحمدُ، وابنُ حِبانَ، عن أنَسٍ مرفوعاً: « **لَا إيمانَ لِمَنْ لَا أمانَةَ لهُ** ».

البعد عن الخيانة

ثُمَّ قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**بعِيداً عَنِ الخِيانةِ**)؛ **قُلتُ**: لأنَّ الخيانةَ مِنْ صِفاتِ المنافقين المنافِيَةِ للإيمان. فيَجِبُ علَى المؤمنِ أنْ يَبتعِدَ عنها ويجْتَنِبَ التَّخلُّقَ بِها لِئَلَّا يَدخل في زُمرتِهِمْ ويَنخرط في سِلْكِهِم، ومَنْ تَشبَّهَ بِقَوْمٍ فهُوَ مِنْهُم.

روَى البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِذَا ائْتُمِنَ خانَ، وإنْ صامَ وصلَّى، وزَعَمَ أَنَّه مُسلِمٌ** ». وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « **يُطْبَعُ المُؤمِنُ علَى كُلِّ خُلُقٍ لَيْسَ الخِيانَةُ والكَذِبُ** » رواه البيهقي في ''الشُّعَب'' عن اِبنِ عُمر.

الصبر على الشدائد

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**صَبُوراً عِنْدَ الشَّدائِدِ**)؛ **قُلتُ**: لِتَفُوزَ بِسلامِ الملائكةِ عليكَ في الجنَّةِ، وتَهْنِئَتِهِم لَكَ بِالعُقْبَى الحسَنَةِ في دارِ الكَرامةِ والنَّعِيم. كما قال تعالى: ﴿ **وَالمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار** ﴾.

وغَيْرُ الصابرِ عن الشدائد والمِحَنِ والبَلايا لا يُقال له هذا، ولا يَفوزُ بهذه الفضيلةِ العظيمةِ

الشأن. ففي الصبرِ علَى الشدائدِ وما يَكره الإنسانُ خيرٌ عظيمٌ وفضلٌ كبيرٌ لا ينالُه المرءُ ولا يُدْرِكُه بِغَيرِهِ مِنَ الأعمال، ولهذا قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **فِي الصَّبرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيرٌ كَثِيرٌ** » رواه الترمذي مِنْ حديثِ اِبنِ عَبّاس. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ** ﴾.

وروَى اِبنُ عَدِيٍّ بِسندٍ فيه ضعْفٌ، عن أنَسٍ رضي الله تعالى عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **قال الله تعالى: إِذَا وَجَّهْتُ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِي فِي بَدَنِهِ، أَوْ وَلَدِهِ، أَوْ مالِه، ثُمَّ اِستَقْبَلَ ذلك بِصَبْرٍ جميلٍ، اِسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ يَوْمَ القِيامةِ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ مِيزاناً أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيواناً** ».

طرح المؤونة

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**قَلِيلَ المَؤُونَةِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تَكونُ مؤمنًا كامِلَ الإيمانِ، وصُوفِيًّا صادقاً في إرادتِكَ. كما روَى أبُو نُعَيْمٍ في ''الحِلية''، والبيهقي في ''الشُّعَب''، عن أبي هريرة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **المُؤْمِنُ يَسِيرُ المَؤُنَةِ** »، يعني: لا يُكلِّفُ إخوانَه بِما يَشُقُّ عليهم، ويَقعون به في التكلف له بِما يَكونُ سببًا في قَطْعِ المودَّةِ؛ كما قِيلَ: مَنْ سقَطَتْ كُلْفَتُه دامتْ أُلْفَتُه، وَمَنْ خَفَّتْ مَؤُنَتُه دامتْ مَوَدَّتُه. ولِهذا ورَدَ في الحديث: « **أَلَا وَإِنِّي بَرِيءٌ مِنَ التَّكلُّفِ، أنَا وصَالِحُو أُمَّتِي** » رواه الدارقطني.

وطرْحُ المؤنةِ وتَرْكُ التَّكلُّفِ مِنْ أهمِّ أخلاقِ أهلِ الطَّرِيقِ، فقد قالوا: الصوفِيُّ لا يتكَلَّفُ ولا يُكَلِّفُ.

خدمة مصالح المسلمين

ثُمَّ قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**كَثِيرَ المَعُونَةِ**)؛ **قُلتُ**: يعني: ينبغي أَنْ تكونَ أيُّها المريدُ كَثيرَ المعونةِ والخِدمةِ لِلمسلمينَ في قضاءِ مصالحهم، والسعي في حاجتِهم، وبَذْلِ المجهودِ في ذلك. فإنَّ مِنْ أخلاقِ الصُّوفِيّ التَّفَتِّي علَى الإخوانِ حِسًّا ومعْنًى، كما قال أبُو مَدْيَنَ الغَوْث رضى الله تعالى عنه:

وَبِالتَّفَتِّي عَلَى الإِخْوانِ جُدْ أبَـداً   حِسًّا وَمَعْنىً وَغُضَّ الطَّرْفَ إنْ عَثَـرَا

قال اِبنُ عِلَّان في شَرْحِهِ لِهذِهِ القصيدةِ: "أيْ وتَكَـرَّمْ علَى إخْوانِكَ أيُّها السَّالِكُ وَجُدْ عليهم دائمًا، أمَّا في الحِسِّ فَبِبَذْلِ الأموالِ، وأمَّا في المعْنَى فَبِنَحْوِ هِبَةِ الأحوالِ، ولا تَبْخلْ عليهم بِشيْءٍ مِمَّا يُمكِنُكَ إيصالُه إلَيهم. فإنَّ السماحةَ لُبُّ الطريقِ، ومَنْ تَخلَّقَ بها فقَـدْ زال عن قَلبِه كلُّ تَعْويـقٍ".

قُلتُ: وإلَى هذا يشير صاحِبُ الوصيةِ رضي الله تعالى عنه في رائيتِه:

فَزُرْهُمْ وَلَا تَسْأَمْ وَاِخْدُمْهُمْ وَلَا تَخَفْ   وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمْ مَا لَدَيْكَ وَلَاخُسْـرَا

فَبِذَاكَ تَـبْلُغُ مَقاماً تَـكُنْ بِـــــه   غَنِيًّا عَنِ الْمَخْلُوقِ فِي الدُّنْيَا وَالْأُخْرَى

وهكذا كان حالُه رضي الله عنه لا يَأْلُو جهْداً ولا يَدَّخِرُ وُسْعاً في خِدمةِ الإخوان، والإنفاق عليهم، وبَذْلِ الطعام والكسوةِ لِصغيرِهِم وكبيرِهِم، والقيامِ بِسائر ما يحتاجون إليه هُمْ وأولادهم، وأخبارُه في ذلك عجيبةٌ غريبةٌ، لا سيما في هذا العصر.

وقد اِنتقَلَ إلَى جِوارِ اللهِ تعالى وتَرَكَ عليه دَيْنًا كبيراً جدًّا، بسبب كَثْرةِ مَعُونتِه لِلمسلمين، ومَدِّ يدِهِ إلى كلِّ مَنْ جاء سائلاً أو محتاجاً، أو طالِباً المساعدةَ في أمرٍ نَزَلَ به؛ رضي الله تعالى عنه وأكرمه برضاه.

قُلْتُ: والفُتوَّةُ أصلٌ عظيمٌ مِنْ أصول الطريق، بل أصلٌ مِنْ أصول الإسلام التي جاء بها الكتاب والسنَّةُ وتَركَها الناس في جملة ما تركوا مِنْ شرائع الإسلام.

وقد عَقَدَ لها أبُو القاسِمِ القُشَيْرِي في "رسالتِه" باباً خاصًّا أجاد فيه وأطال، وكذلك تكلَّم عليها الشيخُ الأكبرُ في "الفتوحات المكِّيَّة"، وعَقد لها باباً خاصًّا أتَى فيه بالعَجَبِ كما هي عادتُه.

والأصلُ فيها الكتابُ والسنَّةُ، كقولِه تعالى: ﴿ **وتَعاوَنُوا عَلَى اَلْبِرِّ وَاَلتَّقْوَى** ﴾، وقولِه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: « **وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ ما كان العَبْدُ في عَوْنِ أخِيهِ** » رواه مسلمٌ، وأبو داود، والترمذي، والنسائي.

وهكذا كان خُلُقُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم، كان لا يَرُدُّ محتاجاً ولا سائلاً، فإنْ لَمْ يَكُنْ عنده قال: أُسلفُ ويَقضي.

وروَى أبو الشيخ في ''أخلاق النبيّ'' عن أسماءَ بِنْتِ أَبِي بكرٍ رضي الله تعالى عنها، قالت: أنْشدَ أبُو بكرٍ رضي الله تعالى عنه قَوْلَ لَبِيدٍ:

أَخٌ لِي أَمَّا كلُّ شَيْءٍ سَأَلْتُـــه   فيُعطِي وأَمَّا كُلُّ ذَنْبٍ فيَغْفـــرُ

فقال أبو بكرٍ رضي الله تعالى عنه: « **هكذا كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم** ».

قيام الليل

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفَعَنا بِهِ: (**طَويلَ اَلْقِيَّامِ**)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي أَنْ تَكونَ أيُّها المريدُ طويلَ قيامِ الليلِ، لأنَّه دأْبُ الصالحِينَ وشِعارُ المتَّقِينَ، وصِفةُ الخائِفينَ الوَجِلِين؛ كما قال تعالى: ﴿ **تَتَجافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ اَلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُون. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِمَا كانُوا يَعْمَلُون** ﴾.

وروَى الترمذي، وابنُ خُزيمةَ في ''صحيحه''، والحاكمُ وقال: ''صحيحٌ على شرطِ البخاري''، عن أَبِي أُمامَةَ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم: « **عَلَيكُم بِقِيامِ الليْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وقُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمُكَفِّرَةٌ لِلسَّيِّئاتِ، وَمَنْهاةٌ عنِ الإِثْمِ** ».

ولهذا كان أفضلُ الصلاةِ بعد الفريضةِ صلاةُ الليلِ، كمَا روَى مسلِمٌ، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابنُ خُزيمةَ، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **أفْضَلُ الصيامِ بَعْدَ رمضان شهْرُ اللهِ المُحَرَّم، وأَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ صَلاةُ الليْلِ** ».

وأقرَبُ ما يكون العبدُ مِنْ ربِّهِ في جوف الليل، كما روَى الترمذي واللفظُ له، وابنُ خزيمةَ في ''صحيحه''، وقال الترمذي: ''حسنٌ صحيحٌ''، عن عَمْرِو بنِ عَبسَةَ أنَّه سمِعَ النبيَّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يقول: « **أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ العَبْدِ في جَوْفِ الليْلِ، فَإِنِ اِسْتَطَعْتَ أَنْ**

تَكونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ تعالَى في تلك الساعة فَكُنْ ».

وأقرَبُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجِدٌ، كما ورَدَ في الخبرِ، فيَنبغِي لِلمُؤمِنِ أَنْ لا يَحْرِمَ نفسَه مِنَ القُرْبَيْنِ: القُربُ في جوف الليل، والقُربُ في الصلاة. وبذلك يَحوزُ الشرفَ كما قال جِبريلُ عليه السلامُ لِرَسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الـمُؤْمِنِ قِيامُهُ بِاللّيْلِ** »، رواه الطبراني بسندٍ حسنٍ عن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه.

الإكثار من الصيام

ثُمَّ قال الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**كَثِيرَ الصِّيَّامِ**)؛ **قُلْتُ**: لأنَّ الصيامَ لا مِثْلَ له كما روَى النسائي، وابنُ خُزيمةَ في «صحيحه»، عن أبي أُمامَةَ رضي الله تعالى عنه قال: قُلْتُ: « **يا رسولَ اللهِ مُرْنِي بِعَمَلٍ - وفي روايةٍ - مُرْنِي بِأَمْرٍ يَنْفعني اللهُ تعالى به. قال: عَليكَ بِالصَّوْمِ فإنَّه لا عَدل فِيه. قُلتُ: يا رسولَ الله مُرْنِي بِعَمَلٍ. قال: عَلَيكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا مِثْلَ له. قلتُ: يا رسولَ اللهِ مُرْنِي بِعَملٍ. قال: عَلَيكَ بالصَّومِ فإنَّه لا مثل له** ». وكان أبُو أُمَامَةَ لا يُرَى في بيتِه الدخان نهاراً، إلَّا إذا نَزل به ضيفٌ.

وروَى ابنُ حِبان في ''صحيحه'' عن ابنِ عُمر مرفوعاً في حديثٍ طويلٍ: « **والصِّيامُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْلَمُ ثَوابَ عامِلِهِ إِلَّا الله عزَّ وجلَّ** ». ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم فِيما رواه أحمدُ بسندٍ حسنٍ كما قال المنذري: « **الصِّيامُ جُنَّةٌ وَحِصْنٌ حَصِينٌ مِنَ النَّارِ** ».

وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وآله وسلم ما أعطاه الله تعالى وخَصَّه به، وغفَرَ له ما تقدَّم وما تأخر، يَسْرد الصومَ ويُكْثِرُ منه، كما في «سنن النسائي» عن أسامة رضي الله تعالى عنه قال: « **كان رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم يَسْرُدُ الصومَ. فَيُقالُ: لا يُفْطِر** ». وروَى أحمدُ، والطبراني، عن أنَسٍ قال: « **كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم يَصُومُ وَلا يُفْطِرُ، حتَّى نَقُول ما في نفسِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلم أَنْ يُفْطِرَ** » الحديث.

الخشوع في الصلاة

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**تُصلِّي رَهْبَةً**)؛ **قُلتُ**: لأنَّ المصلِّي

قائِمٌ بين يَدَيِ اللهِ تعالَى مُناجٍ لَهُ، فيجب عليه أنْ يَقومَ بين يديه بِالخَشْيَةِ، والخوفِ، والرَّهْبَةِ، والخشوعِ، والتَّذلُّلِ، والتَّمسْكنِ؛ كما قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم، فِيما رواه الترمذي، والنسائي، وابنُ خُزيمةَ في ''صحيحه''، عن الفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ رضي الله تعالى عنه: « **الصَّلاةُ تَخَشُّعٌ، وتَضَرُّعٌ، وتَمَسْكُنٌ** ». وفي حديثٍ آخرَ رواه أبو داود، وابنُ ماجه: « **وتَبَأُّسٌ، فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فهِيَ خِداجٌ** » يعني: ناقصةٌ. ولِهذا قالوا: الصلاةُ إِنَّما هي تَصلِيَةُ العبدِ، أي وقوفُه بين يَدَيْ ربِّهِ تَضرُّعاً وتَخَشُّعاً، وتَذَلُّلاً، واِسْتِكانَةً.

فمَنِ اِسْتَشْعَرَ عظمَةَ اللهِ تعالى وجلالَه وكبرياءَهُ في صلاتِه، ثم نظر في حَقارةِ نفسِه وخِسّتِها، وكَوْنِها عبداً مسخَّراً لله تعالى، تَوَلَّدَ له مِنَ الأمرين: الرهبةُ والتعظيمُ والخشوع التام. فَيكونُ في هذه الحالة في صلاتِه في نهاية الرهبة والخوفِ والسكينة، لأنَّه في مقامِ مَنْ يَعبدُ اللهَ كأنَّه يَراه؛ ولأجل كوْنِ الصلاة مقام الرهبة والخوف، والخشية والخشوع، والتذلل والتضرع بين يدي الله تعالى ذِي الكبرياءِ والعظَمةِ والجبروت، نَهَى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ يأتِيَ المصلِّي في صلاتِه بِمَا يُنافِي هذا ويُناقِضُه، كَرَفْعِ البَصرِ وصَرْفِهِ عن موضع السجود، والالتفاتِ، ومسْحِ الحَصَى، وكَفْتِ الشَّعَرِ، وحركةِ الجوارحِ مِنْ غيرِ عُذرٍ، والعَبثِ مطلقاً. لأنَّ هذا كلَّه ينافي ما يجب أنْ يكونَ عليه مِنَ الرهبة والهيبة، والخوف، والسكينة، والخشوع في الباطن والظاهر.

ولأجلِ هذا شرَعَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم وضْعَ اليمين على اليُسرَى في الصلاة، وأَخْبَر أَنَّ ذلك سُنَّة الأنبياء قَبْله، لأنَّ ذلك صِفة التذلل، والرهبة والخشوع.

وقد جَهل وأخطأ، واِتَّبعَ غَيرَ طريقِ السُّنَّةِ مَنْ صلَّى على غير هذه الصِّفةِ، وزَعَمَ أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر أيامه أرسَلَ يَدَيْهِ. فهذا شيْءٌ لا أصْلَ له مُطلقاً، ولا يوجد في كتابٍ من كُتب السنَّة المعتمدة.

فيَجِبُ التنبهُ لهذا لِيَلَّا يقع المؤمنُ في حبالته فيَخرجُ عن السُّنَّةِ في صلاته، والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « **صَلُّوا كما رأيْتُمُوني أُصلِّي** ».

فضل الصيام

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا بعلومه: (**وَتَصوم رَغْبةً**)؛ **قُلْتُ**: يعني أَنْ

يَكونَ صومُكَ رغبةً فِيما أخبر به في الحديث القدسي الذي رواه البخاري، ومسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللهُ عزَّ وجلَّ: « **كُلُّ عَمَلِ ابنِ آدَمَ لَهُ إلَّا الصَّوم فإنَّه لِي، وأنا أَجْزِي بِه** ».

وفي روايةٍ للبخاري: « **يَتْرُكُ طَعامَه وشَرابَه وشَهْوَتَه مِنْ أَجْلِي. الصيامُ لِي، وأنا أَجْزِي بِه، والحَسَنةُ بِعَشْرِ أمْثالِها** ».

وفي روايةٍ لِمُسلم: « **كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضاعَفُ، الحَسنَةُ عَشْرُ أمْثالِها إلَى سَبْعمائَةِ ضِعْفٍ. قال تعالى: إلَّا الصَّوم فإنَّهُ لِي وأنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وطَعامَهُ مِنْ أَجْلِي** ».

فينبغي أَنْ تَكونَ رغبةُ المريدِ السَّالِكِ في الصوم مِنْ هذه الحَيثية، فإنَّه لم يَبْلُغنا عن الله تعالى أنَّه قال في شيءٍ مِنَ العِبادات أنَّه له خالِصاً إلَّا الصَّوم، فَلَولا مَزيدُ خصوصيةٍ ما أضافه اللهُ تعالى إليه، كما قال الشَّعْراني. ولهذا قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِأَبِي أُمَامَةَ: « **عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا مِثْلَ لَهُ** ». فَمَنْ تَحَقَّقَ بهذا، كَثُرَتْ رَغْبَتُه في الصوم، وتَمَحَّضَ صومُه لأجل ذلك.

غض الطرف

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا بعلومه: (**غاضًّا لِلطَّرْفِ**)؛ **قُلتُ**: يعني ينبغي أَنْ تَكونَ أيُّها المريدُ غاضًّا لِطَرْفِكَ عن مَساوِىءِ الإخوان، وإنْ وقَعَت منهم عَثْرةٌ فَتَغافَلْ عنهم، ولا تَشْهَد إلَّا محاسِنَهم، فإنَّ ذلك مِنْ مكارم الأخلاق، ومحاسِنِ الآدابِ التي بُنِيَ عليه الطريق، كما قال في ''المباحِث الأصلية'':

وَالقَصْد مِنْ هذا الطَّرِيقِ الأَدَب في كُلِّ حالٍ مِنْهُ هذا هُوَ المَذْهَب

فَمَنْ لا أَدَبَ له لا طَرِيقَ له. قال الكتاني: ''التصوفُ خُلُقٌ، مَنْ زاد عَلَيكَ بِالخُلقِ فَقَدْ زاد عَلَيكَ في التَّصوفِ''.

فَمِنْ هذه الأخلاقِ: غَضُّ الطَّرْفِ عن مساوىءِ الإخوانِ وعَدَمُ تَتَبُّع عَوراتِهِم، كما قال أَبُو مَدْيَنَ رضي الله تعالى عنه في رائِيَّتِه:

وَبِالتَّفَتِّي عَلَى الإِخْوانِ جُدْ أَبَداً **حِسًّا وَمَعْنًى وَغُضَّ الطَّرْفَ إِنْ عَثَرَا

وهكذا كان خُلُقُ مولانا رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما جاء في وصْفِ عَلِيّ بنِ أَبِي طالِبٍ عليه السلام له، فيما رواه أبو الشيخ في «أخلاق النبيّ»، قال: « **كان لا يَذُمُّ أحَداً ولَا يُعَيِّرُهُ، ولَا يَطْلُبُ عَوْرَتَه** ». وروَى الترمذي في ''الشمائل''، والطبراني، عن هِنْدٍ في وصفِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **كانَ يَتَغافَلُ عَمَّا لا يَشْتَهِي** » يعني: يُظْهِرُ الغفلةَ والإِعْراضَ عمَّا لا يَستَحْسِنُه مِنَ الأقوال والأفعال، تَلَطُّفاً بأصحابِه ورِفْقاً بِهِم.

قلة الزلل

ثُمَّ قال الشيخ الإمام رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**قَلِيلَ الزَّلَلِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تَسبِقُ الدَّائِبَ المجتهدَ في العبادة، كما روَى أبو يَعْلَى بسندٍ لا بأس به، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْبِقَ الدَّائِبَ المجتهدَ فلْيَكُفَّ عن الذنوب** ».

ورواه أبُو نُعَيمٍ في «الحِلية» مِنْ حديثِها بلفظ: « **مَنْ أَحَبَّ أنْ يَسبِقَ الدّائبَ المجتهدَ فَلْيَكُفَّ عن الذنوب** ». والسِرُّ في هذا أنَّ التخليةَ مقَدَّمةٌ علَى التحليةِ، ودَرْءَ المَفاسِدِ مقدَّمٌ علَى جلْبِ المصالح. فَمَن تخلَّى عن الذنوب وابتعَدَ عن المخالَفاتِ، فقد سَلِمَ مِنَ العقاب، ونَجا مِنَ الحِساب، وإنْ لم يكن له عَملٌ كثيرٌ واجتهادٌ في العِبادة. وبِقِلَّةِ الزَّلَلِ يَبلُغُ العبدُ درجةَ المهاجرين كما في ''صحيح ابنِ حِبان ''ا ، و«الحِلية» لِأَبِي نُعَيمٍ، عن أَبِي ذَرٍّ في حديثِه الطويل قال: « **يا رسولَ اللهِ أَيُّ الهِجرةِ أفْضلُ ؟ قال: مَنْ هَجَرَ السَّيِّئاتِ** ».

بل قد سَلَبَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله تعالى عنه فَضْلَ الهجرةِ عمَّنْ لم يَهْجُر السيئاتِ، كما قال في خُطبتِه المشهورة عند نُزولِه بِالجابِيَة: '' يَقولُ الرَّجلُ قد هَاجرْتُ وَلَمْ يُهاجِرْ، وإنَّ المُهاجِرينَ الذين هَجَرُوا السَّيِّئاتِ ''.

الإكثار من أعمال البر والخير

ثُمَّ قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**كَثِيرَ العَمَلِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تكون

مِنَ المسارِعِين إلى المغفرة، والسابقِين إلى الجَنَّة، كما قال تعالى: ﴿ **سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِين** ﴾. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **سابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ** ﴾.

فأَمَرَ سبحانه وتعالى بالمبادرة إلى فِعْلِ الخيراتِ والطاعاتِ، وحَثَّ على المسابقةِ إلى نَيْلِ المغفرةِ والحصولِ علَى القُرُباتِ التي تَكونُ سبباً وطريقاً إِلَى جنَّةٍ عَرْضُها السماوات والأرض، والتي لا تُنالُ إِلَّا بالأعمال؛ كما قال: ﴿ **أُدْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلون** ﴾.

وروَى البيهقي في ''الشُّعَب'' عن عليٍّ عليه السلام قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم: « **مَنِ اشْتاقَ إِلَى الجَنَّةِ سارَعَ إِلَى الخَيْراتِ** ». وقال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة: « **ما رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نامَ هارِبُها، ولا مِثْلَ الجَنَّةِ نام طالِبُها** ». فالراغبُ في الجَنَّةِ يَجِبُ عليه أَنْ يُكثر مِنْ ثَمنِها، وهو العملُ الصالحُ. وروَى الدَّيلَمي عن أَنَسٍ مرفوعاً: « **مَنْ رَجَا شَيْئًا عَمِلَ لَهُ** ».

التأدب مع الأولياء

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا بعلومه: (**أَدِيباً مَعَ الأَوْلِيَاءِ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تَسْلَمُ مِنْ محاربة الله تعالى، ومَقْتِه، والسقوطِ مِنْ عَينِه؛ كما روَى اِبنُ أَبِي الدُّنيا في ''كتاب الأولياء''، والطبراني في «الأوسط''، عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رضي الله تعالى عنه، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبريل عليه السلام، عن اللهِ عزَّ وجلَّ قال: « **مَنْ أهانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بارزَني بِالمُحارَبَةِ** ».

ورواه البخاري في ''صحيحه'' مِنْ حديث أبي هريرة مرفوعاً إِلَى الحقّ تَعالى بِلفظٍ: « **مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ** ». فبالأدب مع الأولياء تَنجُو مِنَ التعرض لهذا الوعيد الشديد، نَعُوذُ بالله تعالى منه.

وسُوءُ الأدبِ مع الأولياء دليلٌ على البُعد مِنَ اللهِ تعالى، كما قال أَبُو تُرابِ النَّخْشَبِي: '' إذا أَلِفَ العَبدُ الإِعْراضَ عن اللهِ تعالى، صَحِبَتْهُ الوقِيعةُ في أولياءِ اللهِ تَعالى ''.

وقد رَوَيْنا هذا القولَ مرفوعاً إِلَى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ حديثِ عليٍّ عليه السلام بِلَفظ: « **إذا أَعْرَضَ اللهُ تَعالى عَنِ العَبدِ وَرَّثَهُ الإنْـكارَ علَى أَهْلِ الدِّيَانات** »، لكنَّه موضوعٌ، لأَنَّه مِنْ طريقِ أَبِي الدُّنيا الأَشَجِّ الطَّنْجِي، الكذّاب، الذي اِدَّعَى لُقِيَّ عليٍّ عليه السلام في المِائَةِ الرابعةِ. والمقصودُ أَنَّ سُوءَ الأدبِ مع الأولياء يَجُرُّ علَى صاحِبِه الوعيدَ كما وَرَدَ في الخبرِ الصحيحِ.

والأدبُ معهم يَكونُ بِحفظِ الحُرمةِ وصِدْقِ المحبةِ، والتسليمِ لِمَا لَمْ يَصِلْ إليه عقْلُكَ مِنْ أقوالِهِم وأفعالِهِم. فَما أَفْلَحَ مَنْ أفلَحَ إِلَّا بِلزومِ الأدب مع الأولياء، وعدمِ التعرضِ لِمَا فِيهِ سُوء الأدب معهم، كما قال في «المباحِث الأصليَّة»:

فَالقَوْمُ بِالْآدابِ حَقًّا سَادُوا ** مِنْهُ اِسْتَفَادَ القَومُ مَا اِستَفَادُوا

النطق بالحكمة

ثم قال رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**كَلامكَ حِكْمة**)؛ **قُلتُ**: يعني: ينبغي أَنْ يَكونَ ـ أيُّها المريدُ ـ كلامك مشتملاً علَى دقائق الإشارات الشافية للقلوب، المانعةِ مِنْ اِتِّباعِ الهَوَى مع الوَجازَةِ في اللَّفْظِ، والاختصارِ في العبارة، لِيَسهلَ أَخْذُهُ، ويَتَيسَّرَ فَهْمُه، وذلك مِنْ علامة الزهدِ في الدنيا والإخلاصِ في العمل، ولُزوم الصمتِ.

ولا يتيسَّرُ النُّطقُ بالحكمة إِلَّا بهذه الخِصالِ، كما روَى أَبُو نُعَيْمٍ في ''الحِلْية''، والبيهقي في ''الشُّعب''، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إذا رأَيْتُمُ الرَّجلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهداً في الدُّنْيا، وقِلَّةَ مَنطِقٍ، فِاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الحِكمةَ** ».

فينْبَغي العملُ علَى الحصولِ علَى النُّطقِ بِالحِكمة حتَّى يعُمّ النفعُ بِكلامِكَ، ويَعْظُم قَدْرُكَ وشَرفُك، ويَكْثُر خَيرُكَ؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُوتَى اَلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً** ﴾، وقال صلَّى اللهُ عليه وآله وسلم: « **اَلْحِكْمَةُ تَزِيدُ الشَّرِيفَ شَرفاً** »، رواه أبو نُعَيمٍ في ''الحِلْية'' عن أَنَسٍ.

إعمال النظر في العِبرة

ثُمَّ قال رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**وَنظَرك عِبْرة**)؛ **قُلْتُ**: لِيَكثُرَ عِلْمُكَ بِاللهِ تعالى، ويَعْظُمَ يَقِينُكَ، ويَقْوَى النورُ والخَشيةُ في قَلبِكَ. لِأَنَّه ما مِنْ شيءٍ في هذا الكونِ إِلَّا وهو دالٌّ علَى وحدانيةِ اللهِ تعالى، وعَظمتِهِ وقُدرتِه، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا اَلسَّماواتِ وَاَلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا باطِلاً، مَا خَلَقْناهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ** ﴾، أيْ للدلالةِ علَى وحدانيةِ خالِقِهِما، قال أَبُو العَتاهِيَة:

وَفِــي كُلِّ شَـيْءٍ لَهُ آيَـةٌ ** تَــدُلُّ علَى أَنَّــهُ واحِـدٌ

ولهذا حَضَّ اللهُ تعالى علَى الاعتبار في قولِه: ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي اَلْأَبْصارِ** ﴾، لأنَّ الاعتبارَ اِفْتِعالٌ مِنَ العُبور، لِأَنَّه يَعْبُرُ مِنه إِلَى غيرِهِ. فَتَعْبُرُ مِنَ الذي قَدْ فكَّرْتَ فِيهِ إلى معرفةٍ ثالِثةٍ وهو المقصودُ مِنَ الاعتبار، ولهذا سُمِّيَ عِبرة، وهو علَى بِناءِ الحالةِ كالجِلسةِ، إعلاماً بِأَنَّ هذا العِلمَ والمعرفةَ قد صار حالاً لِصاحِبِه يَعْبُرُ منه إلى المقصود.

وهكذا حالُ أُولِي الأَبصار، لا يكون نَظَرُهُم إلى شيءٍ مِنَ الأكوانِ إِلَّا عِبرةً، ولا ينظرون بِغَيرِ العِبرةِ مُطلَقاً. لِأَنَّ ذلك صار حالُهم ووَصفُهُم لا يَخرجُون عنه ولا يَزُولونَ، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى** ﴾.

فالعاقلُ المنَوَّرُ البصيرَةِ، المهتدِي، لا يَنظرُ إِلَى شيْءٍ صغيرٍ أو كبيرٍ، جليلٍ أو حقيرٍ، إِلَّا بِعَينِ العِبرةِ، وأَخْذِ العِلمِ الذي يَزدادُ به يقيناً وإيماناً. وأَمَّا الغافِلُ السَّاهِي اللَّاهِي فهُو بِمَعزِلٍ عن هذا كلِّه لِطَمْسِ بَصيرتِه، كما قال اِبنُ عطاءِ اللهِ في "الحِكَم": "الأَكوانُ ظاهِرُها غِرَّةٌ وباطِنُها عِبرةٌ. فالنفسُ تَنظرُ إلى ظاهِرِ غرَّتِها والقلبُ ينظرُ إلى باطنِ عِبرتِها".

قلة الضجر

ثُمَّ قال شيخُنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**قَلِيل الضَّجَر**)؛ **قُلتُ**: يعني لا تَكنْ مِمَّنْ يَكثُرُ قَلقُهُم واضطرابُهُم وشكواهُم، إذا نزل بِهم كربٌ وهَمٌّ مِمَّا يَثْقُلُ علَى النفس تَحمُّلُه، فَتُنْسب بذلك إلى الجهلِ وسُوءِ الأدبِ. فإنَّ المريدَ يجب عليه أَنْ يتأدبَ بِما أَدَّبَ اللهُ تعالى به نبيَّه سيِّدَنا محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلم.

ومِمَّا أَدَّبَ اللهُ تعالى به رسولَه صلى الله عليه وآله وسلم عدم الضَّجر، وَضِيق الصَّدر مِمَّا

يَسمع مِنْ أعدائِه ويواجهونه به مِنَ الأذى، فقال تعالَى: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ** ﴾.

ولهذا كان صلَّى الله عليه وآله وسلم أَصْبَرَ الناسِ علَى أوزارِ الناس وأَوْسعَ الناسِ صدراً، وأَطْيَبَ نفْساً عند الإذايةِ، حتَّى بلغ به الحالُ صلى الله عليه وآله وسلم أَنِ اِستأْذنَه مَلَكُ الجِبالِ أَنْ يُطْبِقَ اَلْأَخْشَبَيْنِ علَى كُفّار قُرَيش، مِنْ شِدَّةِ ما قابَلوه به مِنَ الإذايةِ، فَقال: « **أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ تعالى وَلَا يُشْرِكُ بِهِ** ». وكان يَمْسحُ الدَّمَ عن وجهِه الشريفِ في بعضِ غَزواتِه ويقول كما قال بعضُ الأنبياء: « **اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ». وهذا غايةُ ما يَكونُ مِنْ سِعَةِ الصَّدرِ، وقِلَّةِ الضَّجَرِ، والصَّبرِ علَى الأذَى.

عدم تتبع العورات

ثُمَّ قال الشيخُ الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**لَا تَكْشِف عَوْرَةً**)، **قُلتُ**: لِأَنَّ كَشْفَ عوراتِ المسلمين مِنْ علامةِ مَنْ لَمْ يَدخلِ الإيمانُ قَلبَه.

كما روَى الترمذي، واِبنُ حِبان في ''صحيحه''، عن اِبنِ عُمر رضي الله تعالى عنهما قال: « **صعِدَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم المِنبَرَ، فَنادَى بِصوتٍ رفِيعٍ فقال: يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإيمانُ إِلَى قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا المُسلمِينَ، وَلَا تَتبعُوا عَوراتِهِم، فَإِنَّهُ مَنْ يَتبع عَورَةَ أخيهِ المُسلِمِ يَتبع اللهُ عَوْرَتَه، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَورَتَهُ يَفْضَحُه فِي جَوفِ رَحْلِهِ** ».

فكَشْفُ عوراتِ المسلمين مِنَ الذنوبِ التي يُعَجِّلُ اللهُ تعالَى لِصاحِبِها العُقوبةَ في الدنيا، وهي الفَضيحةُ وكشْفُ عَورتِه ولو كان في بيتِه جَزاءً وِفاقاً.

قال جَدُّنا الإمامُ العارفُ أبو العَبّاسِ أَحْمدُ بنُ عَبدِ المُومِنِ في « أَدَب المُريد»، في كلامِه علَى أحوالِ الصُّوفِيةِ: ''.. ومِنَ الواجبِ عليهم عَدمُ تَتَبُّعِ عوراتِ الخَلقِ، وإذا ظهرَتْ مِنْ أحدِهِمْ هَفوَةٌ سَتَرُوها، أو زَلَّةٌ تجاوزوا عنها، وإذا كُشِفَ لِأحدِهِم عورات الناس سأَل اللهَ تعالى أَنْ يَسترَ عنه ذلك، لِأَنَّ ذلك كَشْفٌ شيطانيٌّ لا يُعْبأُ به ''.

ترك الحقد والحسد

ثُمَّ قال شيخنا وإمامُنا رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**لا حَقُـوداً ولا حَسوداً**)؛ **قُلتُ**: الحِقدُ أَنْ تُضْمِرَ العداوةَ لأخيكَ في قلبِكَ، تتربَّصُ فرصةَ الإيقاعِ به. والحسدُ هو تَمنّي زوال النعمة عنه، وهو ثمرةٌ مِنْ ثِمارِ الحِقدِ. لأنَّ الحقد يَحْمِلُكَ على أَنْ تَتمنَّى زوالَ النعمةِ مِنَ الذي تَحقِدُ عليه، وتُضْمِرُ له العَداوةَ، وذلك هو الحَسدُ.

وكِلاهُما مِنْ كبائرِ الذنوبِ والمعاصِي، يُفْسِدانِ الإيمانَ والأعمالَ، ويُوجِبانِ اللعنةَ والغَضبَ مِنَ اللهِ تبارك وتعالى، كما ورَدَتْ بِذلك النُّصوصُ. وقد ذَكَرتُ ذلك في الأصلِ، وكُلُّ ذلك معلومٌ فلا نُطيلُ بِذِكْرِهِ.

طلب الأمور من أعلاها

ثُمَّ قال رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**تَطْلُبُ الأُمُورَ مِنْ أَعْلاها**)؛ **قُلتُ**: يعني يجب عليك أيُّها المريدُ السالِكُ، الصادقُ في سلوكه وإرادتِه، أَنْ تتوجَّهَ في طلَبِ أمورِكَ كُلِّها، صغيرِها وكبيرِها، إِلَى اللهِ تعالى الذي بِيَدِهِ ملكوتُ السماواتِ والأرض، لِتَكونَ عبداً خالِصاً له سبحانه. فإنَّ مَنْ تَوجَّهَ لِطَلَبِ شيءٍ مِنْ غيرِهِ سبحانه كان عبداً له، واللهُ سبحانه وتعالَى غَيورٌ لا يَرضَى لِعَبدِهِ أَنْ يَكونَ عبداً لِغيرِهِ.

ولهذا قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه الترمذي، والبزار، بسندٍ صحيحٍ، عن أَنَسٍ: « **لَيَسْأَلَنَّ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ أو حَوائِجَه، حتَّى يَسأله شِسْعَ نَعلِهِ إذا انْقَطع، وحتَّى يَسأله المِلْحَ** ». وأكثرُ مِنْ هذا في الإرشاد إلى التوجه إلى الله تعالى في كلِّ ما يَهُمُّ العبدَ مِنْ صغيرِ أمورِهِ وكبيرِها ما يكونُ.

ويقول اللهُ عزَّ وجلَّ في الحديث القدسيِّ الصحيح: « **يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إلَّا مَنْ هَدَيْتُ، وضعِيفٌ إلَّا مَنْ قَوَّيْتُ، وفقِيرٌ إلَّا مَنْ أَغْنَيْتُ، فَسَلُونِي أُعْطِيكُمْ** »، وقال تعالَى: ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللهِ الرِّزْقَ** ﴾، وقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم لِابْنِ عَباس، كما في "سُنن الترمذي": « **إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ بِاللهِ** ».

فمَنْ طلَبَ الأمورَ مِنْ غيرِ اللهِ تعالى فقَدْ أتَى البيوتَ مِنْ غيرِ أبوابِها، ومَنْ فَعَلَ ذلك كان أهْلاً لِأَنْ يُرَدَّ ويُطْرَد.

عمارة الأرض بالجسم والمقابر بالروح

ثُمَّ قال رضي الله تعالى عنه ونفعنا به: (**مُعَمِّراً الأرْضَ بِجِسْمِكَ والمَقابِرَ بِرُوحِكَ**)؛ **قُلتُ**: وبذلك تكونُ مِنَ الأكْياسِ الزُّهادِ، العُقلاءِ أُولِي الحَزمِ والعَزمِ؛ كما روَى اِبنُ أَبِي الدُّنيا في "كتاب الموت"، والطبراني بسندٍ حسنٍ، عن اِبنِ عُمرَ قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم، عاشِرَ عَشرَةٍ، فقال رجلٌ مِنَ الأنصارِ: « **يا نبيَّ اللهِ مَنْ أكْيَسُ الناسِ وأَحْزَمُ الناسِ ؟ قال: أَكْثَرُهُم ذِكراً لِلْموتِ، وأكثرُهم له اِستعداداً. أُولئِكَ الأكْياسُ ذهَبوا بِشَرَفِ الدنيا وكرامةِ الآخرةِ** ».

وقال مُعاذُ: « **يا رسولَ اللهِ أوْصِني. قال: اِعْبُدِ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ، واِعْدُدْ نَفْسَكَ فِي المَوتَى** ». رواه الطبراني بسندٍ لا بأس به.

وقال لِأَبِي الدَّرداءِ: « **اِعْمَلْ للهِ كأنَّكَ تَراه، واِعْدُدْ نفْسَكَ مع المَوْتَى**»، رواه الطبراني، واِبنُ عَساكِر.

وفي الصحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمر قال: « **أخَذَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بِمنْكِبِي فقال: كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ أو عابِرُ سبيلٍ** ». وكان اِبنُ عُمرَ يقول: "إذا أمْسيْتَ فَلا تَنتَظِرِ الصَّباح، وإذا أصْبَحْتَ فَلا تَنتَظِرِ المساء". ورواه الترمذي ولفْظُه: ((كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ أو عابِرُ سبيلٍ، وعُدَّ نفْسَكَ في أصحابِ القُبور)).

التواضع

ثُمَّ قال الشيخُ الإمام رضي الله عنه ونفعَنا به: (**لابِساً ثِيَّابَ التَّواضعِ**)؛ **قُلتُ**: لأنَّه أفضلُ العبادةِ كما قالت عائشةُ رضي الله تعالى عنها فيما رواه أحمدُ في "الزهد" عنها. ولا يَبلغُ العبدُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّى يكون التواضعُ أَحَبَّ إليه مِنَ الشرفِ، كما قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، فيما رواه عنه أحمد في "الزهد".

ولهذا كان محبوباً إلى اللهِ تعالى، ويرفعُ صاحبه في عِلِّيِّين، ويَجعلُه في أَعْيُنِ الناسِ عظيماً، وإنْ كان يَرَى هو نفسه صغيراً.

روَى مسلمٌ، والترمذي، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **ما تَواضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلّا رفَعَه** ». وروَى إبنُ ماجه، وإبنُ حِبان في ''صحيحه''، عن أبي سعيدٍ، عن رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « **مَنْ تَواضَعَ لِلَّهِ دَرجَةً رَفَعَهُ اللهُ درجَةً حتَّى يَجْعله في عِلِّيِّين** ».

وروَى أبو الشَّيخ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **يا عائِشةُ تَواضَعِي فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتواضِعِين** ».

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع ما أعطاه الله تعالى مِنَ المكانة الرفيعةِ في النبوَّةِ، والدرجةِ التي لا يُدركُ لها شأْوٌ في الرسالة، وفَضَّله على العالَمِين، متواضعاً التواضعَ الذي لا يُعْرفُ عند غيرِه، حتَّى كان لا يُعْرَفُ في مجلِسِه مِنْ بينِ أصحابِه لِلرَّجُلِ الغريبِ، لِعدمِ تميُّزِهِ عنهم بمكانٍ أو هَيأةٍ، وكان يجلِسُ حيث إنتهَى به المجلِسُ، ولا يَتركُ أحداً يقوم له عليه صلوات الله تعالى وسلامه.

وروَى مسلمٌ، وأبو داود، وإبنُ ماجه، عن عِياضِ بنِ حِمار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **إِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَواضَعُوا حتَّى لا يَفْخَرْ أحدٌ علَى أحدٍ، ولا يَبْغِي أحدٌ علَى أحَدٍ** ».

التجرد من الطمع

ثُمَّ قال إمامُنا وشيخُنا رضي الله تعالى عنه ونفعَنا به: (**مُتَجَرِّداً مِنَ الطَّمَعِ**)؛ **قُلتُ**: لِأَنَّ الطمَعَ فقْرٌ حاضِرٌ، وعنه يَنشأُ الذلُّ والافتقارُ إِلَى المخلوق الذي لا يَلِيقُ بالمؤمِنِ، ومَنْ كَثُرَ طمَعُه طال عذابُه مِنْ غيرِ أَنْ يقضِيَ وطَراً.

ولهذا أمرَنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله وسلم بالتعوذِ منه، كما ورَدَ في أحاديث كثيرةٍ ذكَرتُها في الأصل.

وقال في ''الحِكم'': "مَا بَسَقَتْ أغْصانُ ذُلٍّ إِلَّا علَى بَذْرِ طمَعٍ". وفي الحديث: « **إِيَّاكُم وَالطَّمع، فإِنَّهُ هو الفَقر** ».

قال اِبنُ عَبّاد في شرْحِ الحِكم: ((والطمعُ مِنْ أعظمِ آفاتِ النفوسِ وعُيوبِها الفادحةِ في عُبوديَتِها، بل هو أصْلُ جميعِ الآفاتِ، لأنَّه مَحْضُ تعلُّقٍ بالناس واِنتماء إليهم، واِعتماد عليهم، وعبودية لهم؛ وفي ذلك مِنَ الذِّلَّةِ والمهانةِ ما لا مَزيدَ عليه، ولا يَحِلُّ لمؤمنٍ أَنْ يُذِلَّ نفسَه. والطمع مضادٌّ لحقيقة الإيمان الذي يقتضي وجود العِزَّة، والعزةُ التي اِتصَّفَ بها المؤمنون إنَّما تَكون بِرفْعِ هِمَمِهِمْ إلى مولاهم، وطمأنينةِ قلوبِهم إليه، وثِقَتِهِمْ به دون سواه)).

وقال جَدُّنا مِنْ جهةِ الأُمِّ أبُو العَبَّاسِ أحمدُ بنُ عجِيبةَ رضي الله تعالى عنه في شرْحِ تائِيةِ شيخِه البُوزَيْدِي رضي الله تعالى عنه بعد كلامٍ: "وَوَرَعُ خاصَّةِ الخاصَّةِ رفْضُ التعلق بِغيرِ اللهِ تَعالى، وعُكوفُ الهِمَمِ علَى اللهِ سبحانه؛ وهذا هو الورَعُ الذي هُوَ مَلاكُ الدِّينِ، كما قال الحَسنُ البَصرِيُّ حين سُئِلَ عن ملاكِ الدِّينِ، فقال: الورعُ. وقِيلَ له: وما فسادُ الدين ؟ فقال: الطَّمعُ. فالورَعُ الذي يُقابِلِ الطَّمعَ هو هذا. وسمِعْتُ شيْخَ شيوخِنا مولاي العَرْبِي رضي الله تعالى عنه يقول: سُدُّوا بابَ الطَّمعِ واِفتَحوا بابَ الورَعِ".

التوكل

ثُمَّ قال شيخُنا الإمامُ رضي الله تعالى عنه ونفَعَنا بِه: (**مُتوكِّلاً علَى المُدبِّرِ الصَّانِعِ**)؛ **قُلْتُ**: لِتَكونَ مِنَ المؤمنين الذين يُحِبُّهم اللهُ تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ **وعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِين** ﴾، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَوَكِّلِين** ﴾.

ومَنْ كان مؤمِناً محبوباً كان الله تعالى كافِياً لهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ يَهُمُّه، ووَقاه كُلَّ سُوءٍ ومكروهٍ، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَتوكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **الذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيماناً، وقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل. فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم** ﴾.

والمتوكلُ يَدخلُ الجنةَ بِغيرِ حسابٍ كما وَرَدَ في الصحيح، وروَى اِبنُ أبِي الدُّنيا في "التوكل" عن اِبنِ عباس مرفوعاً: « **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكونَ أَقْوَى النَّاسِ فَلْيَتَوكَّلْ على اللهِ عزّ وجلّ** ». وروَى أيضاً عن عَلِيٍّ عليه السلام قال: " يا أيُّها الناسُ تَوَكَّلُوا علَى اللهِ، وثِقُوا بِهِ، فإنَّهُ يكفِي مِمَّا سِواه ".

قُلتُ: لأن اللهَ تعالى يقول: ﴿ **أَلَيْسَ اللهُ بِكافٍ عَبْدَهُ** ﴾، فَمَنْ كان متوكلاً فليتوكَّلْ على اللهِ تعالى، الصانِعِ، المُدبِّرِ للأمورِ أحسن تدبيرٍ، وأكمل تقديرٍ.

وأمَّا التوكل علَى المخلوقِ فهو مِنْ ضياعِ العُمرِ فِيما لا يُفِيدُ ولا يَنفع، ولا يُغْنِي. لأَنَّ العاجزَ لا يَنفعُ العاجزَ مِثْلَه كما قال الحَرَّاق:

فَذُو فَاقَةٍ وَاللهِ لَيْسَ بِنَافِــعٍ ** لِذِي فَاقَةٍ إِذْ فَقْرُهُ بِهِ مُحْدِقُ

وسُئِلَ الترمذي الحكيمُ عن الإنسان فقال: "ضعْفٌ ظاهِرٌ ودعْوَى عَرِيضة".

ولهذا يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُتَوَكِّلُون** ﴾. وروَى الديلمِي عن شَدَّاد بنِ أَوْسٍ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: « **حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيل، أمانٌ لِكُلِّ خائِفٍ** ».

قُلتُ: ولمَّا قالها إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاة والسلام لَمَّا أُلْقِيَ في النارِ، قال اللهُ تعالى لها: ﴿ **كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْراهِيم، وأرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الأَخْسَرِين** ﴾؛ بل ورَدَ عنه عليه الصلاة والسلام كما في "الزهد" لِأَحْمد: « **أَنَّ أطْيَبَ أيَّامِهِ التِّي أُلْقِيَ فِيهَا فِي النَّارِ** ».

فهذا حال مَنْ صدَقَ في توكُّلِه على ربِّه، المدبِّرِ الصَّانعِ، واعتمدَ في أُمُورِهِ عليه، واستسلم في شُؤونه إليه، يَحْفَظه ويَتولَّاه ويَقِيهِ وِقايةَ الوَلِيد.

نسألُه سبحانه وتعالى أَنْ يجعلَنا مِنَ المتوكلين عليه في أمورِنا كلِّها، المعتمدين عليه، الصَّادِقِين في الاستِناد إليه، فإنَّه سبحانه نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النَّصير، وحَسبُنا اللهُ ونِعْم الوكيل.

وهذا آخِرُ الشرحِ، وكان الفراغُ منه بالزيادة والاستدراكِ ظُهْرَ يومِ الاثنين التاسعِ مِنْ شعبان، سنَةَ أربعمائة وألْف، بطَنْجَة.

والحمدُ للهِ أوَّلاً وآخِراً وصلَّى اللهُ علَى سيِّدِنا ومولانا محمدٍ الفاتحِ الخاتِمِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليماً.